christianlib.com

الفكر المسيحي بين الأمس واليوم
١٧

www.christianlib.com

# لاهوت الإكليل أو الزّواج المقدّس

المطران يوسف ريّا
الأب جوزيف معلوف البولسيّ

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

# لاهوت الإكليل
# أو
# الزّواج المقدّس



coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

طبعة أولى

١٩٩٦

*

جميع الحقوق محفوظة

*

منشورات المكتبة البولسية

شارع لبنان - بيروت - ص.ب : ٤٤٥٩ - ١١ لبنان
هاتف : ٤٤٤٩٧٣ - ٤٤٨٨٠٦ - ٤٤٩٨٠١
شارع القديس بولس - جونيه - ص.ب : ١٢٥ لبنان
هاتف : ٩١١٥٦١ - ٩٣٣٠٥٢

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

إيقونة القدّيسين يواكيم وحنّة

رمز العائلة

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

سلسلة
الفكر المسيحي بين الأمس واليوم

١٧

# لاهوت الإكليل
# أو
# الزواج المقدس

المطران يوسف ريّا
الأب جوزيف معلوف البولسيّ

منشورات المكتبة البولسيّة

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

# مقدمة

## «أيّها الربّ إلهنا بالمجد والكرامة كلّلهما»

عندما يأتي شاب وفتاة إلى الكنيسة لينالا بركة الله على يد كاهن في صلاة الإكليل، إنّما يعبّران عن رغبتهما في أن يكون الله حاضرًا في حياتهما الزوجيّة، ليصير حبّ أحدهما الطبيعيّ للآخر على مثال حبّ الله للبشر، وعلى مثال حبّ المسيح للكنيسة، أعني حبًّا شخصيًّا، عميقاً، دائماً، لا يزول مع الزمن ولا تضعفه محن الحياة وصعوباتها. الزمن الذي يعيش فيه الناس هو زمن محدود يشوبه النقص في كثير من جوانبه. غير أنّ دخول الله في الزمن في شخص يسوع المسيح، كلمة الله المتجسّد، قد أضفى على الزمن بُعدًا إلهيًّا يتّسم بالكمال والثبات.

صلاة الإكليل هي، على غرار سائر الأسرار المقدّسة، لقاء بين نعمة الله التي أتت إلينا في شخص ربّنا يسوع المسيح أو تعود حاضرة في ما بيننا في كلّ سرّ تحتفل به الكنيسة، وحرّية الإنسان الذي سمع السيّد يدعوه إلى التشبّه بكمال الآب السماويّ: «كونوا كاملين كما أنّ أباكم السماويّ هو كامل»، وإلى المحبّة المتبادلة على مثال محبّته لنا: «أحبّوا بعضكم بعضًا كما أحببتكم أنا»، وقرّر الاستجابة إلى هذه الدعوة في مرحلة جديدة: مرحلة الاقتران بشخص آخر لإنشاء عائلة مسيحيّة تعيش بحسب وصايا الله وتعاليم السيّد المسيح.

تطلب الكنيسة إلى الله أن يكلّل العروسين بالمجد والكرامة. المجد هو تألّق الله خارج الذات الإلهية، هو حضور الله في العالم لتقديس العالم، وحضور الله في الإنسان لتأليه

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



الإنسان. والكرامة هي هذا الإنسان الذي يظهر في كمال إنسانيّته. وبقدر ما يكون الله حاضرًا في حياة الإنسان، بهذا القدر عينه يصل الإنسان إلى ملء كرامته الإنسانيّة.

بالتجسّد دخل كلمة الله عالمنا دخولاً شخصيًّا لكي يملأ الله كل ثناياه. والله يطلب منّا أن نكون نحن استمرار تجسّد كلمته، من خلال حياتنا الفرديّة والجماعيّة.

والعروسان اللذان يتقبّلان سرّ الزواج يلتزمان أن تكون حياتهما في علاقة كلّ منهما بالآخر وفي علاقة كليهما بالمجتمع استمرار التجسّد أيّ استمرار حضور الله واستمرار عمله في العالم.

الاحتفال بسرّ الزواج في رتبة الإكليل تعبير مكثّف عن هذا الحضور الإلهيّ في العالم. وسرّ الزواج يستمرّ على مدى حياة الزوجين بقدر ما يعيشان في حبّهما المتبادل حبّ الله للبشر وحبّ السيّد المسيح للكنيسة في البذل والعطاء ليشرق في حياة كلّ منهما نور الله وضياء وجه المسيح.

نشكر لسيادة المطران يوسف ريّا والأب جوزيف معلوف ما يقدّماه لنا في هذا الكتاب من تفاسير لمختلف أقسام رتبة الإكليل، فيقودانا في أنشودة مجد الله والإنسان.

قال دوستويفسكي: «الجمال وحده بإمكانه أن ينقذ العالم». جمال صلوات الإكليل يزيدها بهاءً جمالُ تفسير المؤلّف. فلنفتح أذهاننا وقلوبنا للبهاء الإلهيّ الذي يشعّ في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب، ليتألّه كياننا الإنسانيّ وتصير حياة كلّ منّا ظهورًا لبهاء الله في العالم.

**+ المطران كيرلّس سليم بسترس**

رئيس أساقفة بعلبك وتوابعها

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

# قصّة يواكيم وحنّة

وردت قصّة يواكيم وحنّة والدَي سيّدتنا مريم العذراء وجدَّي سيّدنا يسوع المسيح في مخطوط قديم، كُتب، على الأرجح، في مطلع القرن الثاني. ويعود الفضل في نقل وقائع هذه القصّة وتفاصيلها إلى بعض أنسباء والدة الإله الذين كانوا بعدُ على قيد الحياة في تلك الحقبة من الزمن. عُثر على هذا المخطوط في مصر في أواخر القرن التاسع عشر. وهو يتضمّن وصفًا مسهبًا عن فحوى القصّة، ممّا يعطيها صفة شرعيّة وتاريخيّة.

**أ - الزوجان العاقران**

مَن لا يذكُر من أسرة مريم العذراء قصّة يواكيم وحنّة؟ فقد عاش هذان الزوجان سنوات طويلة - ثمانين سنة على الأرجح - دون أن يُرزقا ولدًا لأنّهما كانا عاقرين. فصرخا إلى الربّ وصلّيا مراراً عديدة، فلم تستجب السماء لهما في بادئ الأمر لتنزع عنهما هذا العار. وفي عُرف اليهود، كان العقر يُعتبر قصاصًا من الله. لذا، كانت الجماعة تقصي عن حفلاتها وأعيادها كل عيلة مصابة بالعقم.

ومنذ أن اجتاح الرومان أورشليم عام ١٦٨ قبل المسيح، تأصّلت عند اليهود الأتقياء فكرةُ مخلّصٍ أو مسيح، يحرّر أرضهم من أيدي الغرباء ويعيد السلام إلى الشعب اليهوديّ. وكان كلُّ يهوديّ يتمنّى في قرارة نفسه أن يكون جَدًّا «للماسيّا». وعلى الرغم من وضع يواكيم وحنّة الصعب، فلم ييأسا لأنّ أمانتهما لله وبعضهما لبعض كانت متينة وراسخة.

وذات يوم، توجّه يواكيم إلى الهيكل ليقرّب ككلّ مؤمن تقدمته السنويّة للرب. فرفض الكاهن تقدمته، وراح يشتمه مجرّحًا ومقرّعًا لا لشيء إلاّ لأنّه عاقر.. ولدى سماعه هذا

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



القول القاسي، ترك يواكيم الهيكل في الحال وهام على وجهه في الصحراء ليبعد عن نفسه هذا العار، وخصوصاً ليصلّي ويتضرّع إلى الله.

وتناهى خبرُ هروب يواكيم إلى حنّة زوجته، فاعتكفت في بستانها تصلّي وتتضرّع هي بدورها إلى الربّ علّه يُصغي إلى صوت تأوّهها، فقالت:

«أيّها الربّ، انظر إليّ بعين الرحمة وتطلّع إلى جسامة عاري. بماذا أشبّه نفسي، يا ربّ؟

«هل أشبّهها بطيور السماء؟ كلاّ، إنّها أفضل منّي بكثير: فقد باركتَها وكثّرتَها وأنا ما زلتُ على حالي.

هل أشبّه نفسي بحيوانات الأرض؟ كلاّ، إنّها أوفر حظًّا منّي: فقد باركتَها هي أيضاً وكثّرتَها وأنا لا أملك شيئًا.

«هل أشبّه نفسي بسمَك المستنقع؟ كلاّ، إنّها تنعم بصغارها تسبح إلى جانبها، وأنا ليس لي طفلٌ أداعبه...».

وبينما كان يواكيم غارقاً في صلاته في الصحراء وحنّةُ غارقةً أيضاً في تأمّلها، ظهر لهما ملاك من السماء وبشّر كلّ واحدٍ منهما على حدة بأنّهما سيلدان ابنةً وستكون مجدًا لشعبها. وفي غمرة فرحه أسرع يواكيم إلى منزله، وخرجت حنّة من بستانها في الوقت عينه تنظر إلى البعيد البعيد مفتّشة عن رجلها. فالتقيا عند بوّابة تُدعى: «البوّابة الذهبيّة» أو «البوّابة الجميلة».

وتصف الإيقونة هذا اللقاءَ أمام منزلَين جميلَين: فالبيتُ الذي على اليسار هو بيت يواكيم والذي على اليمين هو بيت حنة. وغنيٌّ عن القول أنّ هذه الإيقونة تتخطّى الحدَث البشريّ، ككلّ إيقونة... لا بل تتعدّى كلّ شيءٍ مرئيّ لتُخبرنا عن عظمة هذا اللقاء وأهميّته.

**ب – اللقاء**

حين نتأمّل الإيقونة بتهيّب واحترام، نجد الزوجَين المسنَّين واقفَين، ووجهُهما ملتصقٌ الواحدُ بالآخر، وكأنّ كلّ واحدٍ يحاول أن يطبع على خدّ الآخر كلّ ما فيه من حبٍّ وحنان. وكلّما دقّقنا معاني الإيقونة ورموزها، اكتشفنا تصميمًا رائعًا من قبل الفنّان لرواية

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



هذا الحدَث العجيب دقيقًا ومتقنًا، لاقتناعه الراسخ بأنّ هذا اللقاء هو بداية كل شيء... فإذا بحنّة تركض مسرعةً للقاء زوجها وقلبُها مفعمٌ حبًّا وتهليلاً، ووشاحُها يتطاير وراءَها، يشدّه شعاعٌ من نور. قلبُها يخفق، لأنّها تفتّش عن ملجإٍ أمين بين ذراعي يواكيم القويّتين.

وقد مدّت يدها اليمنى حول عنقه لتضمّه إليها بحبٍّ وسخاء، وسلّت يدَها اليسرى من تحت ذراعه لتشدّد أكثر فأكثر على أهميّة القبلة في اللقاء.

أمّا يواكيم، فيبدو منتصبًا على المصطبة، ضامًّا رجلَيه، منحنيًا لتقبّل عطيّة زوجته باحترام وإجلال فائقَين. وفي بعض الإيقونات، يبدو يواكيم منفعلاً جدًّا إلى حدّ أنّه يدوس قدمَ حنّة لشدة فرحه دون أن تشعر بها. الجوّ مفعمٌ بأريج الحبّ والعطاء، ومغلّفٌ بصدى العزّة والصلابة، ويزداد جمالاً بفضل وقفتها الشامخة. على وجهيهما تبدو ملامحُ الحياة والأناقة إن لم نقل ملامح الشباب. لقد عادت الثقة إليهما، فزال إلى ما غير رجعة كلُّ خوف وكلُّ تردد. ثيابهما صُنعت من النسيج الأحمر الغالي الثمن، دلالةً على فرحهما وإشراقهما. وباختصار، يسود الإيقونة جوٌّ من السلام والطمأنينة لا مثيل له.

كلُّ شيء في الإيقونة يُخبر عن تلك العلاقة الحميمة بينهما: وقفتُهما الأنيقة وحركاتُهما الصامتة. حنة، من جهتها، تحدّق إلى زوجها بشغف، ويواكيم يفتّش عن سحر الجمال في امرأته. يقف يواكيمُ وقفةَ رجل قويّ ملتفتًا إلى امرأته وهي في مجدها. إنّهما يتوقان إلى الهيام في حبٍّ واتحادٍ كاملين.

ويشعر المرءُ بوجود شريكٍ غير مرئيّ يرفرف فوقهما. فالله في عملٍ جدّي ليخلُق قانونًا جديدًا للزوجَين المسنَّين، يضاهي عظمة القانون الذي زرعه في حياة الشباب. فإذا به يُنعش بالحياة والعافية جسدَهما المتجعّد مهيّئًا للحدَث العجيب. وكأنّ كلَّ شيء في الإيقونة يردّد ما قاله سليمان الحكيم في كتابه «نشيد الأناشيد»:

هي: «أنا لحبيبي وحبيبي لي»! (٦ : ٣)

هو: «لكنَّ حمامتي كاملتي وحيدةٌ، هي وحيدةٌ لأمّها»... «رأتها البناتُ فهنّأنها، رأتها الملِكاتُ والسراري فأثنَينَ عليها» (٦ : ٩).

«كالسُّوسَنَة بين الشّوك، كذلك خليلتي بين البنات» (٢ : ٢).

هي: «في ظلّه اشتهيتُ الجلوس وثمرُه حُلوٌ في حلقي» (٢ : ٣)؛ «شِماله تحت رأسي

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



ويمينُه تعانقُني» (٢ : ٦).

هو: «قد خلبتِ قلبي، يا أختيَ العروس، قد خلبتِ قلبي بإحدى عينَيكِ، وبحَلَقة من عِقْدِكِ» (٤ : ٩).

البيتان فسيحان ومفتوحان استعدادًا للاستقبال. فلا مكان للأبواب، والنوافذ مشرَّعة على مصراعَيها، والنورُ يتلاشى على أطرافها تهيّبًا. الداخلُ مغطًّى بوشاحِ الاحترام والحشمة. ولطالما شدّدت الروحانيّة البيزنطيّة على اهميّة المودّة والسرّ في الإيقونة، فعبّرت عنها بوشاحٍ داكن يغطّي كلَّ شيء بحيث يستحيل على العين الإنسانيّة أن تخترق أعماقها وعظمَتها. فالوشاحُ هو كملاك الله الواقف على مدخل الفردوس، يعبّر عن قدسيّة المكان ورهبته، تمامًا كالستار الذي تستخدمه الكنائسُ البيزنطيّة. فالستارُ يحمي عظمة السرّ من الإفراط في التدقيق فيه. إنّ الغرض من الستار الداكن على الأبواب والنوافذ والوشاح الذي يستر الأماكن المقدّسة، قد جُعل لتهدئة حواسّنا، ليرفعها إلى حقيقةٍ أرفعَ وأسمى من تلك التي تفتّش عنها بأعيننا المحدودة... فالستار يعني أنّ هنالك أسرارًا تفوق عقلنا ومخيّلتنا. فحينها نسلّم بتواضعٍ فائق أنّ الأسرار المقدّسة هي شيءٌ خاصٌّ وبعيدةٌ عن متناول يدينا، يمكننا حينئذ أن نرى نورها. فلا نهدر الوقت سدًى من أجل سبر أغوار من هو غيرُ مُدركٍ وفائقُ الوصف.

وبعد عناقهما الطويل، ينسحب يواكيم وحنّة إلى داخل البيت. وهنا نتذكّر من جديد سفر «نشيد الأناشيد» وكأنه سمفونيّةٌ حيّةٌ ونشيدُ غلبة من خلاله لا نسمع إلاّ بعض الهمَسات الناعمة من الإيقونة:

هي: «إجذبني وراءَكَ فنجري. قد أدخلني الملك أخاديرَه. نبتهجُ بكَ ونفرح، ذاكرين حبّكَ أكثر من الخمر» (١ : ٤).

هو: «ما أجمل خدَّيكِ بين العقود، وعنُقَكِ بين القلائد» (١ : ١٠)؛ «قبل أن تنسم ريح النهار وتنهزم الظلال، أنطلق إلى جبل المُرّ وإلى تلّ البخور» (٤ : ٦).

وفي خدرهما المنزليّ، اختبر يواكيم وحنّة جمال الفردوس. فوصلا إلى قمّة الصفاء والشفافيّة في حبّهما... في هذا الفردوس الأرضيّ، خلقَا سويّةً عدنًا الجديدة: مريمَ، التي منها ولدَ ابنُ الله، يسوعُ المسيح، ربُّنا وإلهُنا الذي كشف للبشريّة سرَّ الفردوس الحقيقيّ. وهذا ما أنشدته كنيستُنا قائلةً: «اليوم تعيّد المسكونة لحبَل حنّة الصائرِ بإذن الله. فإنّها ولدَت التي ولدَت الكلمةَ ولادةً تفوق الوصف».

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



وتقول في موضع آخر: «إنّ أقوال الأنبياء قد تمّت، لأنّ الجبل المقدس، مريمَ، يستقرُّ في الحشا! والسُلّمَ الإلهيّة تنتصب، والعرشَ العظيم للملك يُهيَّأ ومكانَ اجتياز الإله يُعدّ، والعوسجةَ الغيرَ المحترقة قد اخذت في الإفراع، وخزانةَ طيب التقديس تفيض الآن أنهارًا، مزيلةً عُقم حنّة المتألّهة العقل، التي بإيمان نغبّطها» (من قطع صلاة الغروب).

هذا الحبَل العجيب ليس جديدًا في تاريخ الخلاص فقد صنع الله، بفيضٍ من حبّه اللاّمتناهي، عجائبَ كثيرة، مكرّمًا فيها بعض آباء العهد القديم وأمّهاته. من قصّة إبراهيم وسارة (تكوين ١١: ٣٠) إلى قصّة إسحق ورفقة (تكوين ٢٥: ٢١) فيعقوب وراحيل (تكوين ٣٠)، ثمّ قصّة حنّة والدة صموئيل (١ صموئيل ٢: ١٠ - ١١) وأخيرًا في الإنجيل المقدّس قصّة زكريّا وأليصابات والدَي يوحنّا المعمدان (لوقا ١: ٧).

## ج - الطفلة

ومن طرف منزل حنّة حتّى يمين الإيقونة، ينتصب بناءٌ مستديرٌ مقبّب، ملتصقًا التصاقًا وثيقًا بالمنزل، ومشكّلاً وحدةً متكاملةً معه. فيه فتحةٌ صغيرةٌ مغطّاةٌ بوشاح مظلِم كما في المنزلَين الآخرَين. وهناك سقفان منحنيان بعضَ الشيء الواحدُ فوق الآخر وكأنّهما يقفزان من أعلى منزلِ حنّة في خطٍّ منسجم، ليغطّيا البناءَ المستدير، وليجعلاه أكثر دفئًا وأكثر أمانة.

كان المسيحيّون القدامى يعتقدون أنّه كلّما طالت مدّة الطفل في أحشاء أمه كان كاملاً. وقد طُبّقت هذه المقولة على سيّدنا يسوع المسيح، فكانوا يردّدون قائلين: وحدَه السيّدُ المسيح أتمّ تسعةَ أشهر كاملة في أحشاء مريم، دلالةً على ألوهيّته. أمّا والدته مريمُ فقد بقيَت تسعةَ أشهر إلاّ يومًا.

ولما عمَدتِ الكنيسةُ الغربيّة إلى نقل تاريخ عيد الحبَل بلا دنس، سنة ١٨٥٤، من اليوم التاسع إلى اليوم الثامن من كانون الأوّل وأبقتّ تاريخ ولادة سيّدتنا مريم في الثامن من أيلول، خلقت بلبلةً كبرى في صفوف الكنيسة الشرقيّة، لأنّ النهار المُضاف قد رفع مريم العذراء إلى مرتبة الكمال كابنها. هذا واحدٌ من الأسباب، في شأن الولادة، التي عمّقت شقّ الخلاف بين الكنائس الشرقيّة والكنيسة الغربيّة. ما نقوله عن السيّد المسيح ومريمَ العذراء لا يمسّ أبدًا كرامة الشخص البشريّ والمدّة التي يُمضيها في أحشاء أمه...

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



وتنظر الكنيسة الشرقيّة إلى حدَث الحبل بمريم من موقع إيجابيّ مشدّدةً على التدابير الأهيّة التي ترافق الإنسان منذ البدء، وتسمّي هذا العيد: «حبل القدّيسة حنّة بوالدة الإله». أمّا الكنيسة الغربيّة، فقد شدّدت على وجه آخر في مفهوم هذا الحدَث، إلى حد السلبيّة أحيانًا لاسيّمَا في كلّ ما يتعلّق بخطيئة الإنسان وشقائه في هذا العالم، ودعتَه «الحبَل بمريم بلا دنس».

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

# التطبيقات اللاهوتيّة في حياة الإنسان

## أ – الإيقونة

من الواضح أنّ الإيقونة البيزنطيّة في ملامحها وتعابيرها، لا تروي قصّة ولا تصف حدثًا فحسب، إنّما تتخطّى المظهر الخارجيّ لترقى بنا صُعُدًا نحو القيَم الروحيّة الرفيعة، نحو عالم اللاهوت وملئه. فالإيقونة هي لاهوتٌ سامٍ في شكل مرئيّ، لكونها تعبّر حقًّا عن حضور الله وعظمته. لأنّها تعكس النور الإلهيّ لتضيء حياتنا وتحثّنا على العيش في جوّ من البهجة والقداسة. وهي أيضاً صلاةٌ تأمّلية بلغت إلينا عبر ألوان زاهية وأشكال هندسيّة بهيّة، خطّتها نظرةُ الرسّام المفعمَة بشذا صلاته وتأمّله.

فإيقونة يواكيم وحنّة، إيقونة اللقاء، تكشف لنا عن كرامة الإنسان وعن التقدير الإلهيّ له: إنّه صورة حيّةٌ لله، يشاطره حبّه ووجوده وأزليّته. وما دقّة التعابير الفنيّة فيها سوى تعبير حيّ عن كرامة الرجل والمرأة التي تتجلّى في حبّهما وأمانتهما المتبادَلين.

## ب – كرامة الشخص الإنسانيّ

ومن خصائص اللاهوت البيزنطيّ أنّه يولي لقيمة الإنسان ومكانته في التدبير الإلهيّ اهتمامًا خاصًّا. ففي عُرفه قصّة خلق الرجل والمرأة المدهشة في الكتاب المقدّس هي أنشودة لمجد الله الأعظم.

ورد في سفر التكوين إنّ الله أنشد قصيدة سمّاها الكون، تسبّح فيه المجرّاتُ والكواكب، ورأى أنّ ذلك حسن. ثمّ أنشد قصائد أخرى سمّاها النباتات والطيور والأسماك والبهائم وقال عنها إنّها حسنة أيضاً. وأخيرًا جمع عجائب الكون وضمّها في

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



أنشودة واحدة فاقت جميع قصائده جمالاً وبهاءً، سمّاها الشخص الإنسانيّ؛ ورأى الله أنّ ما صنعه ليس حسنًا فحسب، بل حسنٌ جدًّا، لأنّه خلق الشخص الإنسانيّ على صورته ومثاله كي يخلُص ويتألّه بواسطة ابنه الوحيد الذي صار بشرًا مثلنا. فالإنسان هو إذن صورة الله، لأنّه خُلق على مثاله من أجل حياة دائمة، تستمدّ ديمومتَها من علاقة الإنسان الحميمة مع أخيه الإنسان ومع الله خالقه.

ويعلّم اللاّهوت البيزنطيّ أيضاً أنّ الإنسان ليس ذرّةً أو حفنةً تراب منعزلةً تعبث بها الرياح كما يزعم بعض الفلاسفة المعاصرين، بل إنّه على مثال الله، يشترك معه في وجوده وعلمه وحرّيته وخلوده. لقد خلق الله الرجل والمرأة على صورته ومثاله يتلألآن في وجه سيّدنا وإلهنا يسوع المسيح، الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس والمتّحد بالآب والروح القدس اتحادًا أزليًّا كاملاً.

على ضوء فكرة الثالوث، نُقصي عنّا كل تصوّر يجعل من المسيح كائنًا منعزلاً، قابعًا في علياء سمائه. إنّه شخصٌ منفتحٌ على الإنسان والعالم، دخل تاريخَنا وأعطانا بعدًا جديدًا لمفهوم الحياة والوجود. فالإنسان في نظر المسيح هو أثمن من جميع الخلائق، لكونه خُلق على صورة الله ومثاله. وحينما يُحاول بعض المفكّرين التشديدَ على الوجه الفردانيّ للإنسان، يغيب عن بالهم ذلك القولُ المأثور الذي يبيّن مدى اهتمام السيّد المسيح بالإنسان: «أمّا أنتم فشعر رؤوسكم محصى بأجمعه! فلا تخافوا» (متّى ١٠ : ٣٠).

## ج – النفس والجسد

الإنسان في بُنيته مكوّنٌ من عنصرَين أساسيَّين، النفس والجسد، يرتبطان أحدهما بالآخر ارتباطاً وثيقًا وكاملاً. فالنفس هي العنصر المُحيي الذي يكوّن الحياة في الجسد. إنّها قوّة فعّالة تسعى في دأب متواصل من أجل إرساء علاقة متناغمة مع الجسد، كي تجعل من الإنسان حقيقة روحيّة تسمو المادة. وقد عبّر الفكر الهنديّ عن هذه الثنائيّة بوضوح، فقال في الأوبنيشاد:

«هذه الروح التي فيّ هي أصغر من حبّة أرزّ، وأصغر من حبّة خردل، لا بل أصغر من جزء خردلة، هذه النفس التي فيّ وفي قلبي، هي أوسع من الأرض وأفسح من الفضاء وأرحب من الكون بأسره».

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



لا شكّ في أنّ الإنسان يخضع لقوى الطبيعة وعواملها. ومع ذلك، فهو يسعى بكلّ ما أوتي من عزم وشجاعة ليتغلّب على ظروف المادّة وقوانينها، للتوصّل إلى تناغم عميق بين قطبيه: النفس والجسد. فكلاهما يعملان، كلٌّ على طريقته، من أجل توطيد عُرى الشركة والانسجام.

وتعلّم الديانة المسيحيّة أنّ الإنسان ليس نفسًا متجسّدة، كما كان يقول أفلاطون، بل جسدٌ حيّ. وتعلّم أيضاً أنّ النفس هي أبعد من أن تكون سجينة الجسم؛ إنّها كالعروس، تحيا في الجسم وتعطيه الشكل والحياة. وتضيف الديانة المسيحيّة قائلةً إنّ الإنسان يشارك الله بفخر في عزّته وكرامته الإلهيّتين وفي سعادته الأبديّة. فالإنسان مدعوٌّ إذن، انطلاقًا من جوهر حياته، إلى الاتّحاد بإنسان آخر، كي يتوصّل من خلال شركته معه إلى الاشتراك في أزليّة الله.

يستمدّ الشخصُ الإنسانيُّ وجوده من الله. «فالأنا» الذاتيّة تسعى دومًا لترقى صُعُدًا إلى السموّ الإلهيّ، إلى الله نفسه، من خلال علاقتها الحميمة بالآخرين، وذلك بإنشاء جماعة إنسانيّة منسجمة. ففي آخر تجلٍّ لله، أي إبّان معموديّة السيّد المسيح، ظهر الله وكأنّه شركة إلهيّة مكوّنة من ثلاثة أشخاص، يُعطي كلُّ شخصٍ إلهيّ ذاته في حبٍّ وسخاءٍ كاملين. وتشدّد الهيكليّة العامة للليترجيّة البيزنطيّة على أهمّيّة الشركة بين الأشخاص الإلهيّة. فإذا بها تردّد النشيد المثلّث التقديس ثلاثَ مرّات قائلةً كلَّ مرّة: «قدّوس الله (الآب)، قدّوس القويّ (الابن)، قدّوس الذي لا يموت (الروح القدس)». لذا، من الصعب، والحالة هذه، أن نفهم شخص السيّد المسيح خارج إطار الشركة النابعة من الثالوث الأقدس. فهو ابن الله والمُرسِل الروحَ القدس.

من البديهيّ أن تلجأ الديانة المسيحيّة أحيانًا إلى صيَغ ومفرداتٍ عقليّة للتعبير عن إيمانها وعقيدتها، بيد أنّها تشجب كل أسلوب لا يقود إلى تمجيد شخص الله. وإن هي استخدمت بعض المبادئ الفلسفيّة، فلكي تساعدنا على إدراك عظمة الشخص من جهة، وتحملنا على عبادة الله عبادةً صادقةً وعميقةً من جهة أخرى.

من هنا نُدرك تمام الإدراك أنّ الله ليس فكرةً مجرّدة، إنّما هو علاقةُ حبٍّ وحياةٍ بين الآب والابن والروح القدس. إنّه قلبٌ فيّاض يُسبغ على الخليقة بأسرها الفداء والقيامة والصعود.


coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



وتعلّم الديانة المسيحيّة أنّ الخليقة انبثقت من قلب الله لا عن حاجةٍ ماسّة منه، بل بحركة حرّة من سخائه المجّاني. لذلك، فهي مدعوّة إلى أن ترجع إلى الحضن الذي خرجت منه بواسطة السيّد المسيح، الوسيط الوحيد بين الله والإنسان. وقد كتب القدّيس غريغوريوس في هذا الشأن فقال: «إنّ الله لفي سخاءٍ دائم يُفيض وحيه على الإنسان ليحرّك ضميرَه ويضيء ظلمته».

وخلاصة القول إنّ الشخص الإنسانيّ مجبول على الانفتاح والعلاقة. فما إن يترك جماعةً حتّى يجد جماعةً أخرى تعطف عليه وتُشعره بوجوده. وما فورةُ الانطواء على الذات في أيّامنا سوى نتيجة حتميّة لقساوة المجتمع المعاصر الذي يُرغم الإنسان على العيش وحده، فيسلبه هويّته وإنسانيّته. وإذا تمادى الإنسان في عزلته، يُصاب بالهلوسة ويفقد كل صلة مع الواقع. وقد فهم آباء الكنيسة هذا الواقع المأساويّ للإنسان فعبّروا عنه في صورة رمزيّة وضعوا فيها حالة البشر في جهنّم، فكانوا يقولون: إنّ أصعب ما يتوصّل إليه الناس في جهنّم هي أن يوثّقوا وظهورُهم ملتصقةٌ بعضُها ببعض بحيث لا يستطيع أحد أن يحدّق إلى وجه الآخر، فيشعرون بمرارةٍ غريبة تفوق أنواع العذابات كلّها.

ويلخّص القدّيس غريغوريوس عظمة الشخص الإنسانيّ وقيمته الإلهيّة في هذا النشيد:

«إنّ مجدك أيّها المسيح، قد تجلّى في الرجل والمرأة اللذين أقتها في هذا العالم كالملائكة...

أنا المبشّر ببهائكَ... إن أنا أحببتُ فمن أجلكَ، وإن تفوّهتُ بشيءٍ فمن أجلكَ أيضاً.

لقد صرت تقدمة حيّةً لكَ، ولا أملك شيئًا أقدّمه لك سوى ذاتي...».

### د – العلاقة المتبادَلة

وإن نحن أنعمنا النظر في خصائص الشخص الإنسانيّ، وجدنا أمورًا كثيرة ترفع من شأنه وتجعل منه إنسانًا فريدًا. ولكن يبقى سرُّ العلاقة والمودّة الذي يجعل من الإنسان كائنًا قريبًا من الألوهة. فإن تخلّى عن هذا البُعد الحياتيّ يفقد معنى وجوده، متخبّطاً في الظلمة، لا يدري أين يتوجّه. فلا سبيل إلى اكتشاف صورة الله في الثالوث الأقدس إلاّ من خلال العلاقة المتبادَلة بين أبناء البشر.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



وتعلّم إيقونة يواكيم وحنّة، إيقونة اللقاء، أنّ الشخص الإنسانيّ يحافظ على مكانته وكرامته في الزواج، حتّى في نشوة علاقته الحميمة مع شريكه، بحيث يحافظ كلٌّ واحد على خصوصيّته وشخصيّته.

ولكي ندرك مفهوم المساواة بين الرجل والمرأة على الرغم من اختلاف شخصيّتها، تبيّن الإيقونة من خلال رموز البيتَين هذا الأمر بطريقة جليّة. فخلف المصطبة، حيث يقف يواكيم وحنّة وجهًا لوجه، ينتصب بناءٌ هندسيٌّ مزدوجٌ يرمز إلى بيتَين متواضعَين. فالبيت الأوّل، المنتصب خلف يواكيم، يُمثّل الرجل؛ والبيت الثاني، المنتصب خلف حنّة، يُمثّل المرأة. ومن الواضح أنّ البيتَين يختلفان الواحدُ عن الآخر من حيث الشكلُ الهندسيّ، إلا أنّهما يتساويان في الأهمّيّة والعظمة. فالبيتان مؤسَّسان على القاعدة ذاتها والمصطبة ذاتها ومزيَّنان بألوان تليق بعرش الملوك حيث يجلس الملك والملكة محاطين بالمجد عينه. ويرتفع السقفان نحو السماء بالشموخ ذاته ويلفّهما خمارٌ أحمر رمزُ وحدتهما وتناغمهما. ولكي تشدّد على المساواة بين الرجل والمرأة، ترينا الإيقونة يواكيم وحنّة واقفَين معًا على المصطبة، وقفةَ عناق طويل. إنّهما حقًّا مثالُ التناغم والانسجام ومع ذلك، فلكل شخص نظرتُه وشخصيّته.

و إن تأمّلنا مليًّا في معاني الإيقونة وأبعادها، سمعناها تردّد على مسامعنا أن الرجل والمرأة متّحدان في الزواج اتحادًا كليًّا. ومع أنّ علم النفس الحديث قد بنى نظريّات لا تحصى عن الزواج ومكانته في المجتمع، فهو يبقى حائرًا في ما يتعلّق بأمر التراتبيّة بين الرجل والمرأة.

ونؤمن كمسيحيّين بأنّ التراتبيّة تحمل طابعًا خاصًّا في مفهوم الثالوث الأقدس. فكما أنّ الآب هو رأس كل ألوهة ومصدرُها، كذلك الرجل، فهو رأس المرأة ورأس العيلة المسيحيّة.

والأمر المدهش في إيقونة يواكيم وحنّة، أنّ شكل البيتين يوضح هذه التراتبيّة على نحو رائع. فهو يلوّن بيت الرجل بألوان زاهية وبرّاقة تغطّي كل جوانبه. ويلاحظ المرء دون عناء أنّ المدخل الأماميّ هو أعلى بكثير من المدخل الآخر ومزخرفٌ بنصبين يرمزان إلى الفنّ الخاصّ بالملك. أمّا بيت المرأة فهو أقلّ عظمة، وقد لُوّن بألوان داكنة. فالنصبان الجاثمان على مدخل بيتها، صمّمها الرّسام بشكل وجهين يتّجهان نحو الداخل في وقفة تهيّب واستقبال. فالمرأة لا تحتاج إلى زخرفات خارجيّة لكي تلفت النظر إليها. المرأة زينتُها فيها. ونرى في أعلى سقف بيتها شالاً من حرير أحمر لامع، يتهدّل بشكل قبّة ويربط البيتين معًا.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



من طبيعة الرجل أن يميل إلى السيطرة والتخويف. أمّا المرأة فهي بالأحرى تميل إلى التوحيد والتناغم. هو يهيمن وهي توفّق. هو يُعيل بعمله وهي بتفانيها. هي تحضن بحنانها وهو بشجاعته. وتضع المرأةُ التوازنَ حيث الضّياع، والتناغمَ حيث الفوضى. يزرع الرجل الحياة فتحوّلها المرأة بروحها المعطاء إلى كائن جديد.

وتُشير تفاصيل الإيقونة إلى انّ هذه الفروقات لا تُنقص أبدًا من أهمّيّة العلاقة بين الرجل والمرأة بل تكمّلها. لذا، لا يمكن الرجل أن يعيش من دون المرأة. فقد خُلقا ليعيشا سويّة، تشدّهما الواحدُ إلى الآخر جاذبيّةٌ غريبة، غالبًا ما ينتج عنها خليقةٌ جديدة. هذه الثمرة هي برهانٌ ساطع على اتّحادهما الدائم.

والأمر الذي يلفت الانتباه، أنّ وجهَي يواكيم وحنّة، على الرغم من تقدّمهما في السنّ وفتور حياتهما الجنسيّة، قد تغيّرا فجأة وتحوّلا إلى شخصَين جديدَين ممتلئَين حياةً ومتأهبَين لخلق كائنٍ جديد. وكأنّي بالله يسنّ قانونًا خاصًّا بها، كذاك الذي تخيّله يوم خلق الشباب. وهكذا أصبحا قادرَين، كما يذكر التقليد، على تقديم ثمرةٍ ممجّدة أمام الله. ومن نسلهما وُلِدت مريمُ العذراء التي أعطت أنبل ما جادت به الإنسانيّة والألوهة معًا: يسوع المسيح.

إتحادٌ تامٌّ مع احترامٍ لذاتيّة كلّ واحد، تلك هي قمّة الكرامة والمساواة في القيمة الإلهيّة التي تجمع الرجلَ والمرأة في الزواج. فمن الحمق أن تلجأ المرأة مثلاً إلى قيادة سيّارة شحن كبيرة أو أن تصير كاهنة لتؤكّد شخصيّتها ومساواتها بالرجل، ومن الحمق أيضاً أن يشتهي الرجل أحشاء امرأة ليحمل ولدًا في داخله تشبّهًا بالمرأة. فلكلٍّ منها مهمّته ودورُه في المجتمع.

وتشدّد الإيقونة في وصفها لزواج يواكيم وحنّة على حقيقة هذا الزواج وتاريخيّته. وقد رأت الكنائسُ الشرقيّة في زواج يواكيم وحنّة مثال الزواج المسيحيّ، فاستحقّا لقب «العيلة المقدّسة».

وإنّه لمن العسير أن يبلغ الإنسان ملءَ كماله، إن هو تخلّى عن العلاقة والتعاون. وخيرُ دليل على ذلك ما ورد في سفر التكوين، حين يأتي الكاتب على ذكر آدم وحوّاء. فيقول: «يترك الرجل أباه وأمّه ويصيران كلاهما جسدًا واحدًا» (٢ : ٢٢).

إنّ قصّة خلق الإنسان في سفر التكوين التي تروي كيف أخذ الله ضلعًا «من جنب آدم» ليخلق المرأة ليست إلاّ صورة شعريّة تعبّر عن أهمّيّة العلاقة التي تربط الرجل بالمرأة.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



فهما من أصل واحد ومن نسَب شريف واحد. وتعني لفظة «آدم» الإنسان الحيّ. في مطلع الخليقة، كان آدم إنسانًا كاملاً، أي رجلاً وامرأةً في الوقت عينه.

يوم كنتُ طفلاً، كان رعاة كنيستنا يردّدون على مسامعنا هذا القول: «لمّا أبدع الله «الحنان»، لم يجد مكانًا لائقًا يحلّ فيه، فخلق آدم. ففي «إيش» (الرجل) و «إيشّا» (المرأة)، وجد اللّهُ الموضعَ المناسب لسكنى حنانه...».

وكتب القدّيس غريغوريوس النيصيّ يقول إنّ علاقتنا بالله هي «تفتيشٌ دائمٌ عن الفيض السرمديّ». وبما أنّ الرجل والمرأة قد خُلقا على صورة الله، فهما في تفتيش وسعي متواصلَين ليكتشف أحدهُما الآخر. وخلاصة القول إنّ الله في جوهره هو علاقة ثالوثيّة: الآب والابن والروح القدس. وحسبُ الإنسان أن يكون على صورة هذه العلاقة.

عندما يتمّ اللقاء بين الرجل والمرأة ويكشف كلٌّ منهما ذاته للآخر، وحين ينسجم الفكر والمخيّلة ويتّحدان في عطاءٍ جسميٍّ وروحيٍّ كامل، إنّما يشتركان في نقل حركة الحياة النابعة من الله – الثالوث. عندها يكونان في ذروة حبّهما.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

# أبعاد الحبّ المسيحيّ

يقوم الزواج المسيحـيّ على الحبّ، والحبُّ في أصل ثباته، وهو يكون فيه ومعه سعيدًا، أو يكون شقيًّا وذميمًا إن خلا منه. وما من زواج على غير هذه الحال، لأنّ ميزة الزواج الجوهريّة أن يُعقد على الحبّ الذي أوحى به الله الثالوث، ذلك الحبّ الكامل، الثابت، الدائم إلى الأبد. إنّ الاتّحاد البشريّ يستمدّ قوامه من الينبوع الأزليّ للسعادة والسلام والانسجام والغبطة.

وقد تبارى الكتّاب في وصف مزايا الحبّ وخصائصه، ولا سيّمَا في النصف الثاني من القرن العشرين، إلى حدّ الإفراط أحيانًا. فمنهم من شدّد على الناحية الجنسيّة منه، مع ما ينجم عنها من ممارسات منحرفة وجامحة؛ ومنهم من تمادى في الحطّ من قيمته وقدسيّته إلى حدّ المهانة والمذلّة، ضاربين بعرض الحائط كل القيَم والمُثُل، فألحقوا الحبَّ بدنيا المخدّرات الإباحيّة، بحيث باتت اللفظة تافهة ومبتذلة لا رونق لها ولا جمال.

ومنذ القرون الأولى، تنبّهت المسيحـيّة لخطر الانحراف في مفهوم الحبّ وممارسته. فالقدّيس يوحنّا الذهبيّ الفمّ في إحدى عظاته الشهيرة، يشدّد على عظمة الزواج وكرامته في الإيمان المسيحيّ، يقول لأبناء رعيّته: «إنّ عطيّة الله، أصلَ ذرّيتنا، قد أهينت، وكم أودّ أن أنقّيها بخطابي هذا. إنّي متحرّق جدًّا لأجعل من الزواج سرًّا صافيًا، فأردّه إلى أصالته الشريفة، وأكمّ بذلك أفواه الهراطقة».

الحبُّ هو محور أحاديث الناس اليوميّة. إنّه أقوى وأعمق سرّ في الوجود، لا لشيء إلاّ لأنّ الله حبّ. وما حبُّنا الإنسانيّ سوى بريقٍ ساطعٍ لحبّ الله. فمهما اجتهدنا في وصف الحبّ وتعداد محاسنه، يبقى وصفُنا ضعيفًا أمام عظمة هذا السرّ وسموّه. وحدهم الذين

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



اختبروا بهاءه وجماله، أعني بهم القدّيسين والفنّانين والشعراء والعشّاق، يُمكنهم أن يعبّروا عن مجده، وأن يكشفوا عن جمال سحره. انطلاقًا من هذه الخبرات والشهادات الحياتيّة العميقة، واستنادًا إلى تعاليم الإنجيل المقدّس، نحصر مفهوم الحبّ الكامل في خمس مقامات جوهريّة هي: الحضور (presence)، الشركة (communion)، الالتزام (engagement)، الاستسلام (surrender)، التناغم (harmony).

## أ - الحضور

هو أولى دعائم الحبّ وأساس كل علاقة بين شخص وشخص. إنّه دعوة إلى الانعتاق من الذات، والانفتاح على حقيقة الآخر ووجوده. فالشخص الإنسانيّ، وهذا أمرٌ بديهيّ، لا يُعرف إلاّ من خلال كشفه لذاته ضمن عمل واع وحرّ. ويبادره الشخص المعنيّ بالمكاشفة عينها، فيبرعم الحبُّ حينئذٍ، ويرقى صعُدًا، ليُضحيَ شركةً فالتزامًا ثمّ استسلامًا، إلى أن يصل إلى ذروة مجده في الانسجام والتناغم.

وتصوّر الإيقونة سيّدنا يسوع المسيح محاطاً بهالة من نور، كتب عليها باللغة اليونانية عبارة O ΩN أي الكائن، إحياءً لما قاله الله لموسى على جبل حوريب، يومَ سأله عن اسمه الحقيقيّ، فكان الجواب: «أنا هو من هو» (خر ٣: ١٤). والمراد من هذه العبارة أنّ الله حاضرٌ في كلّ مكان، ولاسيّمَا في حياة الإنسان يرافقه في تجواله وترحاله. وكما نعرف من خلال الإنجيل المقدّس، لم يتردّد السيّد المسيح لحظةً في أن يُطلق على نفسه هذا الاسم، فكان يقول للّذين يشكّكون بشخصه: «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (يو ٨: ٥٨).

وتصوّر الإيقونات السيّد المسيح وله عينان واسعتان كأنّهما يستوعبان الكون بأسره. فما إن يقع نظرنا عليهما حتّى يخترق نورُهما الإلهيُّ عقلَنا وتفكيرَنا، فنضحي، في أسرع من لمح البصر، أسرى حبّه وجماله. نحن المسيحيّين، نؤمن بأنّ السيّد المسيح حاضرٌ في كلّ مكان، يكشف لنا ذاته، ويحثّنا، من خلال علاقتنا معه، على معرفة ذواتنا معرفةً عميقةً وصادقة. الحضور، إذن، هو أوّل نغمة من تلك السمفونيّة المدهشة، نعني بها سمفونيّة الحبّ بين الشابّ والفتاة.

والحضور أيضاً هو ذلك الفجر البهيّ الساطع فوق الفردوس، والباب الذي يقود إلى ملكوت الله. إنّه تَوقُ الذات إلى ذات أخرى، وتمهيدٌ إلى لقاء أعمق، يكتشف المرءُ من

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



خلاله معنى حياته ووجوده. فلا عجب أن يُضحي الحضورُ بعد ذلك حاجةً ماسّة، لتكوين شخصيّة كلٍّ منها. هناك رسالةٌ من القدّيس غريغوريوس النازينزي إلى صديقه القدّيس باسيليوس، تصف عمق العلاقة التي توصّل إليها هذان الصديقان، نورد بعضاً منها: «تعالَ إليّ لتنعش حياتي، فكلّ ما تعلّمناه سويّة في الأيّام الخوالي، ما زلت أحفظه في قلبي. أنت الهواءُ الذي أتنشّقه، لا بل أنت أفضل منه بكثير... فأنا لا أحيا إلاّ منك. فإذا كنتَ حاضرًا أسعد بحضورك، وإن غبتَ عنّي أستعيض بطيف صورتك...».

والحضور المتبادَل هو نورٌ إلهيّ يبدّد وحشة العزلة، إذ ما من شيء يكدّر صفو الحياة كالعزلة. إنّه انتصارٌ على الخوف والظلمة. من هذا المنطلق، لا نجد أيَّ معنى لإلهٍ منعزلٍ منطوٍ على نفسه، لا يعرف أن يحبَّ ويفرح.

نؤمن بالله الآب لأنّه حبّ، ولأنّ كلَّ أقنوم من الأقانيم الإلهيّة الثلاثة يكشف نفسه للآخر، ضمن حضورٍ جوهريّ يستحيل وصفُه وإدراكه. نؤمن بالله الآب لأنّه غمر البشريّة بحبّه السخيّ الفيّاض.

نؤمن بالله الابن لأنّه أُرسل من قبل الآب ليكون حاضرًا في إنسانيّتنا وخلقنا. نؤمن بربّنا يسوع المسيح لأنّه اختار أن يكون حاضرًا بيننا بطبيعته البشريّة، وأن يتّحد بكلّ واحدٍ منّا من خلال حضوره الحيّ في الإنجيل والإفخارستيّا الإلهيَّين.

نؤمن به في آخر المطاف لكونه أرسل لنا الروح القدس. ونؤمن بالروح القدس، لأنّه حاضرٌ معنا، يختمنا بشخصه الإلهيّ، ويُبعد عنّا كل بليّة ومكروه. إنّه القدّوس الذي لا يموت أبدًا. لذا ندعوه الهبةَ والختمَ و «الحاضرَ في كلّ مكان والمالئَ الكل». وخلاصة القول، الحضور هو أوّل الحبّ، والحركة الأولى التي تقودنا إلى الله.

### ب - الشركة

ما إن يخطو الشخصُ الإنسانيُّ عتبةَ الحضور الحرّ والصادق، حتّى يصبو إلى شركة أعمق لمعرفة الشخص الآخر معرفةً حقيقيّة.

ولكي يتعرّف الناس بعضُهم بعضاً، لا بدّ من مراقبة أقوالهم واختباراتهم، أي ما يحبّون ويرفضون في الحياة. إنّها الطريقة الفضلى للتوصّل إلى شركةٍ حميمةٍ مع شخصٍ نرغب في بناءِ علاقةٍ وطيدةٍ معه.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



وتفترض الشركةُ كشفًا صريحًا للذات، وعطاءً سخيًّا لا يعرف الكلل والتردّد. فالشركة الحقيقيّة هي أن أكسب ثقة من أحبّ وأرضى به كما هو في فقره ويُسره، في ضيقه وفرحه. فحين تتوفّر هذه الشروطُ كلُّها بين شخصَين، يَبطلُ كلُّ حاجزٍ ويتبدّد الشكُّ ويزول كلُّ خوف.

ويغيب عن بالنا في أغلب الأحيان أنّ العلاقة المتينة يشوبُها شيءٌ من الألم والجهد. فحين يكشف شابٌّ عن سرائره لفتاة أحبَّها، فإنّما يعمل على هدم الجدار الذي يحمي حياته، فهو لم يعد ملكَ نفسه بل ملك من يحبّ. وبمعنى آخر، عليه «أن يفقد نفسه ليجدها» (أنظر متّى ١٦ : ٢٥)، كما علّمنا السيد المسيح. إنّ شعلة الحبّ والسعادة تزداد يومًا بعد يوم بمقدار ما نقدّم من ذاتنا وحياتنا للشخص الذي نحبّ.

## ج – الالتزام

ومن البديهيّ أن تتوّج الشركة بين شابّ وفتاة في الخطبة، قمّة الحبّ والصراحة بينهما. بهذا الالتزام الجديد يتعاهدان على العيش في الأمانة والانتباه لكل رغبة أو مطلب قد يصدر عن كلٍّ منهما. ويقتصر دورُ الكنيسة في هذه الحالة على مباركة ثمرة حبّهما الطويل، فَتُلبّس كلاًّ منهما خاتمًا في بنصر يده اليمنى دلالة على الرهبة والاحترام الجديدَين اللذَين سيتحلّيان بها من الآن فصاعدًا. فالخاتَم هو رمز اتّحادهما وبداية مشوارهما الطويل. بيد أنّ الالتزام يبقى عقدًا وليس عهدًا وبالتالي يمكن فسخه. وقد كرّست الكنيسة صلوات رائعة في رتبة الخطبة للاحتفاء بهذا الالتزام البهيّ:

«أيّها الربُّ إلهنا، يا من رافق غلام رئيس الآباء إبراهيم إلى بلاد ما بين النهرين حين أرسل ليخطب امرأةً لسيّده إسحق، وجعل استقاءَ الماء وسيلةً لإظهار خطبة رفقة، أنت بارك خطبة عبدَيك وثبّت القول الذي قطعاه، ووطّدهما في الوحدة المقدّسة التي منك. لأنّك من البدء خلقت ذكرًا وأنثى، ومنك اقتران المرأة بالرجل للتعاون ولتناسل الجنس البشريّ. أنت إذن أيّها الربُّ إلهنا، يا من أعلن الحقيقة لميراثه والموعد لعبيده آبائنا الذين اختارهم على توالي الأجيال، انظر إلى عبدك وأمتك، وثبّت خطبتهما في الأمانة والوفاق والحقّ والمحبّة، لأنّك أنت، يا ربُّ، أوعزت أن يُعطى العربون، وأن يؤيَّد به كلُّ شيء. لأنّه بالخاتَم دُفع السلطانُ إلى يوسف في مصر، وبالخاتَم مُجّد دانيالُ في بلد بابل، وبالخاتَم ظهرت حقيقة تامر، وبالخاتَم عطف أبونا السماويُّ على الابن الشاطر قائلاً: ضعوا الخاتَم في يمينه واذبحوا العجل المسمّن ولنأكل ونفرح.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



يمينك هذه، يا ربّ، أجازت موسى وجنودَه البحرَ الأحمر إنّها بكلمتك المحقّة تشدّدت السماواتُ وتأسَّست الأرض، ويمينا عبديكَ تباركا بكلمتك العزيزة وساعدك الرفيع. فأنت الآن أيضاً، أيّها السيّد، بارك وضعَ هذَين الخاتمَين بركةً سماويّة، وليَسر ملاكُ الربّ أمامهما كلّ أيّام حياتهما.

لأنّـك أنت مباركُ جميع الأشياء ومقدّسها، وإليك نرفع المجد أيها الآب والابن والروح القدس، الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين»[١].

إنّ قمّة الحياة هي أن نعمل من أجل ترسيخ معرفتنا للآخرين. فعندما نكتشف قوى الجسد والروح الكامنة في الشخص الآخر، نبلغ إلى نشوة السعادة. فالكشف المتبادَل يحضّ كلاً من الطرَفين على أن يختبر واقع الحبّ المدهش ومعنى كمال الحياة.

وما انفكَّ المسيحيّون يتغنَّون بجمال الحبّ القائم بين الرجل والمرأة: إنّه حقًّا منتهى المجد والكرامة. بالحبّ يشعران بأنّهما جزءٌ من مسيرة الحياة التي تقود إلى الله مصدرِ كلّ فرح وكلّ طمأنينة. وإنّ نشيد «المحبة» في رسالة القدّيس بولس الأولى إلى الكورنثيّين (١٣: ١ - ١٥)، لأجمل ما فاضت به قريحة الإنسان في وصف الحبّ المسيحيّ:

«لوكنتُ أنطق بألسنة الناس والملائكة، ولم تكن فيّ المحبة، فإنّما أنا نحاسٌ يطنّ، أو صنجٌ يرنّ. ولوكنت لي النبوّة، وكنت أعلم جميع الأسرار والعلم كلّه، ولوكان لي الإيمانُ كلُّه حتّى لأنقل الجبال، ولم تكن فيّ المحبّة، فلست بشيء. ولو بذلت جميع أموالي (إحسانًا)، ولو أسلمتُ جسدي لأُحرق، ولم تكن فيّ المحبّة، فلا أنتفع شيئًا.

المحبّة تتأنّى وترفق؛ المحبّة لا تحسد؛ المحبّة لا تتباهى، لا تنتفخ؛ لا تأتي قباحة، ولا تطلب ما لنفسها؛ لا تحتدّ، ولا تظنُّ السوء؛ لا تفرح بالظلم بل تفرح بالحق؛ تتغاضى عن كلّ شيء، وتصدّق كلّ شيء، وترجو كلّ شيء، وتصبر على كلِّ شيء. المحبّة لا تسقط أبدًا».

انطلاقًا من هذا المفهوم السامي للحبّ، تُضحي الحياةُ جميلة، وذاتَ معنًى عميق وشفّاف، فيتطلّع العاشقان حينئذٍ إلى علاقة أوثق ليعبّرا فيها عن عواطفهما الفيّاضة، وهذا ما نسمّيه الاستسلام الكليّ دون قيد أو شرط.

## د - الاستسلام

الحبُّ مغامرةٌ مدهشة تشدّ الإنسان إلى المضيّ قُدُمًا، وتتحكّم به في كلّ خُطوة يقوم بها، لأنّ الشريك الآخر يُضحي حاجةً حياتيّة ملحّة يصعب التخلّي عنه، مهما تغيّرت الظروف وتقلّبت الأحوال. فالشريكان اللذان قطعا شوطاً كبيرًا في علاقتهما وبلغا إلى أعمق

(١) كتاب **الإفخولوجي الصغير** (النصّ الكامل)، المطبعة البولسية، جونيه - لبنان، ١٩٦٨، ص ٩٧ - ٩٨.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



مظاهر الرقّة والشفافية، يشعران بضرورة الاتحاد الكلّي، لا بل بضرورة الاستسلام المطلق، فيضحي الواحدُ ملكًا للآخر دون حياءٍ أو خجل.

ها نحن في ذروة العطاء والحرّية. فهل هناك شيءٌ في الدنيا يضاهي ما يعبّر عنه العاشقان في استسلامهما الواحدُ للآخر؟ وكأنّ كلَّ واحد يهمس في وجدان من يحبّ بهذه الكلمات العطرة:

«سأبقى معك، في السرّاء والضرّاء، في الغنى والفقر، في العافية والمرض حتّى الموت...».

ما إن يرتبط الشاب بالفتاة ارتباطاً نهائيًّا، حتّى يُضحي العالم بأسره أمرًا ثانويًّا أمام كثافة اختبارهما وعظمته. في غمرة الاستسلام ضمن الحياة الزوجيّة، تضطرم شعلة الحبّ، فتساعدهما على اختبار الله المحبّ البشر، الذي أحبّ كلّ إنسان في هذا العالم، دون قيد أو شرط.

بالاستسلام الكلّي لا يخطر على بال أحد من الشريكين أن يتحدّث من بعدُ بلغة الشرط أو الواجب. تلك أمورٌ مسلَّمٌ بها، وإن خطرت على بال أحدهما فهي تسيءُ كثيرًا إلى جمال العلاقة التي توصّلا إليها.

بالاستسلام الكلّيّ يختمِ الواحدُ الآخر بسخائه وأناقته وكرامته. الاستسلامُ الكليُّ هو قمّة الخلق والشاعريّة. فكلُّ نسمة وكلُّ كلمة لها معناها ومكانتها في حياتها المدهشة.

هذا التّوق إلى الحبّ اللامتناهي هو ذروة الفرح والحبور. فالإنسان المسيحيّ يسعى بكل جوارحه إلى الامتلاء من هذا الفرح كي يصل إلى فرح السيّد المسيح. ألم يقل لتلاميذه إبّان العشاء السرّي: «اثبتوا في محبّتي... قلتُ لكم هذا ليكون فرحي فيكم، ويكون فرحُكم كاملاً» (يو ١٥: ٩ - ١١).

بالاستسلام الكلّي، يتخطّى الشابّ والفتاة حركة الزمن وثقل المادة ويَهيمان في مناجاة وجدانيّة هي أقرب إلى الأزليّة منه إلى الواقع. باتّحادهما الكلّي، يُضحي كلُّ واحد منهما مدعاةَ فرحٍ وسعادةٍ للآخر. الحبُّ الصادق وحدَه، النابعُ من عمق الإنسان وكيانه، قادرٌ على تذليلِ الصعاب وكسر رتابة الحياة المملّة. الحبُّ هو سرُّ الحياة وجوهرُها، لأنّه يرفع الإنسان إلى مستوى الكرامة الإلهيّة ليضاهيَ الله في الخلق والعطاء. هناك نشيدٌ أميركيٌّ قديمٌ يصف معانيَ الحبّ وأبعادَه بين الرجل والمرأة، اقتطفنا بعضاً منه:

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



«إنّ استسلامك الكلّي والحرّ، سوف يُزهر في أعماق تلك الحياة التي سنشاطر جمالها سويّة...».
فكلُّ تضحية قد تُطلب منكَ في المستقبل من أجل الحفاظ على حياتنا المتبادَلة، افعلها دومًا بسخاء...

الحياة بطبيعتها مملّةٌ وقاسيةٌ. الحبُّ وحدَه يجعلها سهلةً ويحوّلها إلى فرح!

إنّ إرادتنا للعطاء تُقاس بما نُظهره من حبّ، فحينما يكون حبُّنا كاملاً، تصبح تضحيتنا شاملة...

«هكذا أحبَّ اللّهُ العالم حتّى إنّه بذل ابنه الوحيد» (يوحنا ٣: ١٦).

«وقد أحبّنا الابنُ حتّى إنّه بذل نفسه من أجل خلاصنا».

وخلاصة القول، ينبع الفرح الكامل من الشركة والاستسلام الكلّي للآخر. ويذكّرنا هذا الفرح بعطاءِ السيّد المسيح واستسلامه الكلّي للآخرين في سرّ المناولة المقدّسة. فكلَّ مرةٍ نتناول جسدَ الربّ يمتلئ قلبُنا فرحًا وحبورًا فنترنّم بأغانيَ وأناشيدَ روحيّة معبّرين بذلك عن كثافة حضوره الإلهيّ في حياتنا:

«يا سيّد الكل، هب أن تكون لنا شركة جسد مسيحك ودمه المقدَّسين لإيمانٍ لا يُخزى، لمحبّة لا رئاءَ فيها، وللامتلاء من الحكمة، لشفاء النفس والجسد»

(صلاة الشكر في القداس الإلهي للقدّيس باسيليوس).

«لتمتلئ أفواهُنا من تسبحتك، يا ربّ، لأنّك أهّلتنا لأن نشترك في أسرارك المقدَّسة الخالدة الطاهرة. إحفظنا في القداسة لنُشيد بمجدك ونهذّ النهار كلّه ببرّك»

(القدّاس الإلهي ليوحنّا الذهبيّ الفم).

وحينما نتضرّع إلى والدة الإله في آخر القدّاس الإلهيّ، نقول:

«أيّتها السيّدة امنحيني دموعَ توبةٍ واعتراف لأسبّحك كلّ أيّام حياتي».

هذا ما نردّده ونتغنّى به كلَّ مرّة يهب السيّدُ المسيحُ ذاته من أجلنا.

إنّ وعود الاستسلام بين الخطّيبَين تقود إلى نوع من الحياة هي أشبهُ بالنذور الرهبانيّة. فكما يستسلم الراهبُ لإرادة الله، كذلك يستسلمُ الخطّيبان الواحدُ لإرادة الآخر، كي يكتشفا الله سويّةً، من خلال ارتباطها الحياتيّ الدائم.

**هـ - التناغم**

لا شكّ في أنّ هذه المقامات، مع ما هي عليه من دقّة في وصف العلاقة بين الرجل والمرأة، تبقى دون المناجاة الشجيّة التي تُنعش حبّها وحياتها. فالحبُّ الحقيقيُّ هو الذي يـبلغ إلى أقصى مراحل الانسجام والتناغم، فيشعر المرءُ بأنّ كلَّ همسةٍ وكلَّ نظرةٍ من

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



شريكه إنّما تعبّر عن أعمق ما في الوجود من سحر وجمال. هذا هو التناغم الذي يطمح إليه الرجل والمرأة في حياتهما، بحيث يصبحان جسدًا واحدًا وقلبًا واحدًا ونفسًا واحدة.

إنّ أبعاد الحبّ الكامنة في قلب كل إنسان تتخطّى حدود العقل والمخيّلة. فبمقدار ما يتعمّق الإنسانُ ويتأمّل في هذا السرّ يتقرّب من الله ويفهم معنى دعوته الإلهيّ. فالإنسان مدعوٌّ إلى التألّه ليكتشف عظمة تلك العيلة الإلهيّة الثالوثيّة التي تنثر الحبَّ والتناغم في الكون. وهذا ما تشدّد عليه الكنائس البيزنطيّة وتعلّمه في الليترجيّة الإلهيّة وفي صلواتها اليوميّة.

ليس إلاّ حبٌّ سرمديّ، وإلهٌ محبٌّ أزليّ، الله الثالوث الأقدس، الذي ظهر في الدنيا وغمرَنا بلطفه وحنانه. وما الحبُّ الإنسانيُّ سوى بريقٍ ساطع لمن هو مصدرُ كلّ حبّ.

نؤمن إيمانًا راسخًا بأنَّ سيّدَنا يسوعَ المسيح قد بارك الحبَّ الإنسانيَّ ورفعه إلى أعلى درجات المجد والكرامة. بظهور الثالوث الأقدس لم يعد مجالٌ للخوف أو القلق، لأنّا ندرك تمامًا أنّ الأرض قد تحوّلت إلى سماء.

قمّة الحب بين الرجل والمرأة هي في التناغم. بيد أنّ هذا التناغم لا يكتمل إلاّ في الوعي الراسخ لحضور السيّد المسيح، مقياس كلِّ حبٍّ وعطاء. وهذا ما نسمّيه في عُرفنا المسيحيّ بقدسيّة الحبّ.

### و – قدسيّة الحبّ

لنوجز: إن الحبّ الذي يوحّد الرجل والمرأة في الزواج، يستمدّ حيويّته الأولى من الحضور، فيكشف كلُّ واحدٍ وجهه وحقيقته للآخر. ومع الوقت، يستحيل الحضور إلى شركة حميمة ومتبادلة تُتوَّج في آخر المطاف بالتزام واعٍ وراسخ، حتّى إنّ الواحد يهب نفسه للآخر دون حياءٍ أو خجل. فكما تنثرُ الزهرة عطرَها وجمالها في أرجاء الطبيعة وتستحيل جزءًا متناغمًا منها، هكذا يُضحي الرجلُ والمرأة في لقائهما الجنسيّ جسدًا واحدًا متناغمًا.

وبعد أن يشترك الرجل والمرأة بفرحٍ وحريّة في تحمّل المصير الواحد ينضمّان إلى مخطّط الله وتدبيره الإلهيَّين أي، في «حركة الثالوث اللامتناهية» (Perichorisis) ويتّحدان اتحادًا كليًّا بحياته الإلهيّة، فيشاطرانه سعادته الأبديّة ضمن حياة هادئة ومحرَّرة من الهموم

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



والمشاغل الناجمة عن ثقل المادّة والزمن. وقد عبّرت كنيستُنا البيزنطيّة المقدّسة عن هذه الشركة بكلمة «Kairos»، أي باللازمن. هناك يتوقف كلُّ شيء، ويلج الإنسانُ في زمن من نوع آخر، لا يعرف الحركة ولا التبدّل. الذين يعرفون أن الله يحبّهم، يُدركون وحدهم سموّ قيمتهم وكرامتهم، ويشعّون جمالاً وخيرًا لأنّهم اختبروا حبَّ الله ولمسوه بأيديهم في الحبّ الذي يجمعهم.

الحياة الجنسيّة مغامرةٌ جميلة: إنّها حوارٌ بين الجسد والروح، من شأنه أن يقود الشخصَ الإنسانيَّ إلى قمّة الفنّ والرهافة، إن هو تنبّه لتلك الكرامة التي خصّه اللّهُ بها.

ومع ذلك، فقد تعترض الأزواجَ أوضاعُ حياتيّة خاصّة، فتربُكهما وتغرقهما في تناقضاتٍ يصعب حلُّها. في الحياة الجنسيّة يكون الإنسانُ أكثرَ عطوبة، لكونه يتعرّض إلى الذلّ والمهانة أكثر ممّا يتوقّع من مجدٍ ونشوة. «إنّه لأصعب على المرءِ أن يكون عاشقًا من أن يكون فنّانًا». هذا ما كانت تردّده أمّهاتنا في كنيستنا الملكيّة. فالعاشق المسيحيُّ هو قدّيس، يسعى كلّ يوم ليتخطّى الميلَ الشهوانيَّ المجرّد الذي يتلاشى بسرعة، كي يُدرك سرَّ عشيقته في تجرّدٍ وحبٍّ بعيدَين عن الأثرة والتسلّط. فمن الضروريّ أن يتوصّل الرجل والمرأة إلى تناغم كامل في جسدَيهما وروحهما كي ينفتح الواحدُ على الآخر، ويبلغا إلى ما سمّاه پول إڤدوكيموف «بالسعادة الأبديّة الوجيزة»(*). ولكي يكون للحبّ الزوجيّ الحقيقيّ تقديرٌ رفيع، لا بدّ للرجل والمرأة من أن يعيشاه في الأمانة والتناغم.

من النافل أن يتمادى المرءُ في وصف شيءٍ لم يختبره، خصوصاً في الحياة الجنسيّة، لأنّ لها وضعًا خاصًّا وفريدًا يجب احترامُه، خوفًا من أن ننهك حرمة الحبّ ونشوّه صورته. فلكلّ رجل وامرأة اختيارُهما الخاص، يعبّران عنه بمشاعر وأحاسيس جديدة، كلّ مرة يجتمعان، وكأنّه يحصل للمرّة الأولى في تاريخ الكون.

وتحمل العلاقة الجنسيّة في ذاتها أبعادًا عميقة عن مكانة الحبّ في حياة الإنسان. وقد يُسهم تكرارُها في ترسيخ رابط الألفة وجمال الحياة. ومع أنّ هذه العلاقة الجنسيّة تتلاشى شيئًا فشيئًا مع تراكم الأيّام، فهي تنمو وتكبر في مفهوم آخر، ناثرةً الفرح والسعادة في حياة الرجل والمرأة حتّى المات.

إنّ الغاية من علاقة الرجل والمرأة في الزواج هي الفرح والحريّة والسعادة وكمال الحياة. فهي ليست عملاً بشريًّا أو حُلمًا، إنّما علاقة حسيّة من الله الذي خلقهما وأسبغ عليهما نعمة كي يكبرا ويتخطّيا مشاكلهما الكثيرة.

(*) a brief of pleasure

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



من هذا المفهوم تشجب المسيحيّة كل علاقة شهوانيّة محضاً، لاقتناعها الراسخ بأنّها تقود إلى السأم والقلق. فالعلاقة الجنسيّة هي عطاءٌ مجانيٌّ، بين شخص وشخص عرفا أن يوجّها حنانها وانتباههما وتفاهمهما من أجل إعطاء ثمرة الحبّ معنًى عظيمًا لحياتها.

## ز – ثمرة الحبّ

إنّ الهدف الأوّل من الحبّ بين الزوجين هو السعادة. فالحبّ هو علّة الزواج ومحرّكه، يرفض كلّ تفسير وتحليل لأنّه يفرض ذاته على الإنسان كجزءٍ منه، فيحافظ على رونقه وبهائه حتّى في غياب البنين. إنّ اتّحاد الرجل بالمرأة هو أهمّ من استمرار الجنس البشريّ. لا شكّ في أنّ إنجاب البنين يُسهم في نموّ العلاقة بينهما، لكن لا بديل عن الحبّ على الإطلاق. فحتّى إن حُرم الزوجان من الأولاد فباستطاعتهما أن يعيشا كمال الحياة ويختبرا جمالها. وقد كتب البابا بيوس الحادي عشر في رسالته «الزواج المسيحيّ» في هذا الشأن، فقال: «على الحبّ أن يكون كما في انطلاقته الأولى، وسيلةً لتعميق علاقة الرجل بالمرأة، بحيث ينموان يومًا بعد يوم في الخير والفضيلة. هذا هو البعد الحقيقيُّ للحبّ في الزواج».

قد يولد الطفل في غمرة حبّ بين الرجل والمرأة.

لا تخضع الحياة الجنسيّة عند الإنسان، ما خلا الممارسات الجنسيّة الحيوانيّة، لعبثيّة الغزيزة. إنّها علاقة حرّةٌ ومسؤولةٌ تحمل الرجل والمرأة من خلال اتحادهما إلى أبعاد سامية تتخطّى حدود المادّة. لا شكّ في أنّ اتّحادهما يقوم قبل كل شيء على علاقة جسديّة بيولوجيّة، بيد أنّ ما يقدّمه الواحد إلى الآخر من خلال هذه العلاقة يفوق بكثير البُعد المادّي: إنّهما يكتشفان تلك الصورة البهيّة التي تذكّرهما بأصلهما الإلهيّ: «على صورة الله خلقه، ذكرًا وأنثى خلقهما» (تكوين ٢٧ : ١).

وكما سبقنا وذكرنا آنفًا، إنّ الشخص مركّبٌ من جسد ونفس. فكلّ مرّة يتنكّر الفلاسفة لهذه الثنائيّة يقعون في شرك المادّيّة أو الإحيائيّة كما يعيشها عالمُنا اليوم تحت تأثير المادّة وسلطانها. والاعتقادات السائدة بأنّنا لسنا سوى حصيلة تفاعلات بيولوجيّة وكيميائيّة، أو تفاعلات روحيّة محضتٍ قد ولّت إلى ما دون رجعة. فأين نحن اليوم من مفهوم أفلاطون للجسد والنفس. مَن منّا يعتقد بأنّ الجسد هو سجنٌ للنفس، وأنّ هذه تتحرّر تمامًا بانحلال الجسد واضمحلاله؟ أمّا المسيحيّة فهي تعلّم أنّ الشخص الإنسانيّ هو

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



ذاتٌ فريدةٌ مكوّنةٌ من جسدٍ ونفسٍ يتفاعلان في عطاءٍ متبادَلٍ وكاملٍ إلى الأبد. وتستمدّ المسيحيّة هذ المفهوم من إيمانها بأنّ الإنسان مدعوٌّ إلى القيامة، وأنّ النفس سوف تتّحد اتحادًا كليًّا بالجسد عينه في الفرح والمجد الأبديّ.

## ح - الإجهاض

عندما يتطرّق العلماءُ غيرُ المسيحيّين إلى مسألة الإجهاض يتوقّفون في أغلب الأحيان عند النواحي البيولوجيّة والكيميائيّة والاجتماعيّة، دون أن يأبهوا لما قد ينتج عن الإنسان من شعور وأحاسيس تتخطّى في ذاتها مبضع الطبيب الجافّ. ولا عجب في ذلك، فالعلمُ عاجزٌ عن سبر أغوار الشخص وأسراره. ومع أنّه بلغ إلى درجة مرموقة في دنيا الطبّ، فهو يبقى دون التجربة الإنسانيّة، خصوصاً في ما يتعلّق بماهيّة الحياة وتكوينها. فالله وحدَه يقدر أن يكشف أبعادَ الشخص الإنسانيّ وسرَّه. وإن نحن حُدنا عن وصيّته، يُضحي الجنينُ في نظرنا كتلةً كيمائيّةً أو نقطةً من شحم ليس إلاّ.

في عُرف المسيحيّة يتكوّن الشخصُ الإنسانيُّ إبّان الحبل، ويستّمد الجنينُ أهمّيته من ذاته، لأنّه ثمرة عطاءٍ بين شخصين هاما في مغامرة حبّ لا نهاية لها. فالمرأة من جهتها تقدّم ذاتها لرجلها من خلال إفرازها تلك البيضة العجيبة مع ما يرافقها من رقّة وحنان. والرجل يهب ذاته للمرأة بنفس القوّة والعطاء ناقلاً إليها المادة المنويّة التي تبعث الحياة في البيضة لتخلق كائنًا جديدًا. فالجنينُ هو حياةٌ جُبلت من حياة الرجل والمرأة. ومع أنّ روح الخليّة الأولى لا تملك القدرة على النطق والتعبير عن عظمة هذا الحدث، إلاّ أنّها تملك قدرة النموّ نحو كمال الشخص الإنسانيّ. وهكذا ينمو الجنينُ في أحشاء أمّه ويتفاعل معها بكلّ جوارحه، فيتحوّل من خليّة واحدة إلى خلايا لا تُحصى، مكوّنةً اللحمَ والعظمَ وكلّ أعضاءِ الجسم. وخلاصةُ القول إنّ الجنين في رأي المسيحيّين هو شخصٌ إنسانيّ منذ بداية الحبل به. وكلُّ محاولة للتخلّص منه تُعدّ جريمة قتل. ألم يقل الكتاب المقدّس: «لا تقتل»؟

وفي رأي المسيحيّين أيضاً أنّ البرهان الشافي الذي يدعم موقفنا في التشديد على شخصيّة الجنين هو تجسّد ابن الله في أحشاء العذراء مريم. إنّه مثالٌ لكلّ حَبلٍ إنسانيّ. فعندما ترك الملاكُ جبرائيل العذراء، بعد أن قبلت دعوة الله لتصبح أمًّا للأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس، صار الجنينُ في الوقت عينه إلهًا في الجسد: «والكلمةُ صار جسدًا وسكن في ما بيننا» (يو ١ : ٦٤).


coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



## ط - تحديد النسل

لقد بات من الصعب جدًّا، في عالم تهيمن فيه الإباحيّة على قلوب الناس وعقولهم، أن نقوّم الرؤية المسيحيّة للحياة الجنسيّة تقويمًا دقيقًا، لكونها تفهم هذا الأمر من منظارٍ آخر، يتخطّى أبعاد اللذّة والعادات الاجتماعيّة السائدة.

ونحن في صدد ملابسات الحياة الزوجيّة وما ينجم عنها من صعوبات ومشاكل، يعترض تفكيرَنا مسألةٌ شائكةٌ تشغل بال الكثيرين، أعني بها مسألة تحديد النسل. فلا بدّ من وقفة صريحة وجريئة لنعبّر عن موقف المسيحيّة في هذا الشأن وكيفيّة التعاطي مع الأُسر المسيحيّة.

على أثر المجمع الفاتيكانيّ الثاني، طلب البابا بولس السادس من بعض الأخصائيّين، في محاولة جريئة للتخفيف من وطأة التفسّخ ضمن الأسر المسيحيّة الناجم عن الانحراف الأخلاقي في الحياة الجنسيّة من جرّاء الجوّ العلمانيّ والإلحاديّ السائد، أن يعبّروا عن رأيهم بصراحة في موضوع تحديد النسل، قبل أن تنشر الكنيسةُ موقفها الرسميّ.

وإبّان اللقاء شدّدت الأكثريّة الساحقة، والتي يُشهد لها بالحكمة والدراية، على أن تأخذ الكنيسةُ موقفًا أكثرَ ليونة، وأن يعاد النظر في القوانين التي سنّتها في شأن تحديد النسل واستعمال وسائل منع الحمل.

بيد أنّ البابا بولس السادس لم يُعرِ ما قاله هؤلاء أهميّة كبرى ونشر رسالته «Humanae Vitae». مصرًّا على موقف الكنيسة عينه. وها نحن اليوم أمام تيّارين: تيّار يرفض كل الطرق الطبيّة الحديثة في هذا المجال، وتيّارٍ أكثر ليونة يميل إلى الاعتدال والواقعيّة.

أمّا رُتبة الإكليل في الطقس البيزنطيّ فهي ترفع من شأن العفّة المسيحيّة في الحياة الزوجيّة. ونعني بالعفّة هنا النزاهة في العلاقة الإنسانيّة والتكامل في القوى الحياتيّة بين الشخصين، كي يقتربا من الملكوت في السلام والتناغم. فإن رُزِق الرجل والمرأة بنين أم لا، فالأمرُ يبقى ثانويًّا، لأنّ الهدف الأساسيّ هو الصعود نحو الحبّ والعطاءِ المتبادلَين بينهما.

يستحيل الحبُّ بين الزوجين في قمّة عطائها إلى عفّة سامية. وحين يهب كلٌّ واحدٍ نفسَه للآخر، يتوقّف الزمن فيصرخ كلّ من جهته: «أنا لحبيبي، وحبيبي لي» (نشيد الأناشيد ٦:٣). حينئذٍ، يختار الزوجان الطريقَ الأفضل الذي يُرضي الله والضمير،

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



لتحقيق ما عَزما عليه سويّة. من هذا المنطلق تُضحي مسألة تحديد النسل مسألة ضميريّة مناطة بمسؤوليّتها دون سواهما. ألم يُعلن المجمع الفاتيكانيّ الثاني إنّ «الضمير هو المركز الأشدّ عمقًا في الإنسان، والهيكل الذي ينفرد فيه الإنسان إلى الله، ويسمع فيه صوت الله»؟[٢]

يوجز اللاهوتيّ الكبير پول إڤدوكيموف في كتابه «سرّ الحبّ» (Sacrament of Love)، مفهوم اللاهوت الشرقيّ في تحديد النسل فيقول:

«تسعى الكنيسة في تبشيرها إلى التشديد على التوبة، وتأمل أن يتحوّل الرجل والمرأة إلى خليقة جديدة، ليتحلّيا بمواهب روحيّة (Charismatic)، فتساعدهما على طرد القوى الشرّيرة، وعلى التمييز بين الأرواح، وتريها الدربَ الحقيقيَّ الذي يقود إلى التحرّر النهائيّ؛ إلاّ أنّها لا تسنّ الشرائع الاجتماعيّة للحياة ولا تصف الترياق».

على الكنيسة أن لا تتخاذل عن إدلاء أيّة نصيحة إذا دعت الحاجة، ولكن عليها أن لا تتدخّل في تفاصيل حياة الرجل والمرأة الحميمة وإلاّ تعرّضت للنقد. وقد صرّح البطريرك مكسيموس الرابع، إبّان المجمع الفاتيكانيّ الثاني قال: «لا تلج الكنيسة أبدًا إلى غرفة الزوجين، إنّما تقف على الباب».

وتؤمن الكنيسة البيزنطيّة بأن سرّ الإكليل يجعل من الرجل والمرأة نبيّين، فيتوّجها ملكَين الواحد على الآخر، ويُلبسها كهنوتَ المسيح. إنّ هذه الكرامة هي من صميم دعوة الإنسان. لذا ينبغي أن تنبع قرارات الرجل والمرأة من داخلها، وأن يحكما على الظروف والأحداث من خلال ضميرهما كي يجدا الحلَّ الملائم لحياتها.

(٢) الدستور الراعويّ: «**الكنيسة في عالم اليوم**»، الوارد في **المجمع الڤاتيكاني الثاني** (دساتير – قرارات – بيانات)، منشورات المكتبة البولسيّة، بيروت وجونيه (لبنان)، ١٩٩٢، ص ٢١٦.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

# الاتحاد

بعد أن يبلغ الرجل والمرأة ذروة التناغم والانسجام في حبّهما يتوجّهان إلى الكنيسة ليتوَّجا بإكليل المجد على غرار الملوك والملكات.

في الكنيسة البيزنطيّة لا يكون الرجل والمرأة خادمَي السرّ، كما هي الحال في الكنيسة الرومانيّة. فالأسقف أو الكاهن هما الخادمان الحقيقيّان. فهو الذي يمنح السرّ، وهو الذي يكلّل العروسين ويقبلهما في عداد أبناء الملكوت، ويوشّحهما بحلّة كهنوت المسيح، ثمّ يقودهما إلى حياة الروح الجديدة، لينعما بعلاقة خاصة مع الله. وفي الإكليل يعيش العروسان في شركة حميمة مع الروح القدس الواهب الحياة، الحاضر في كلّ مكان، والمالئ كل شيء. عندها تضحي «مملكتُهما» مملكةَ نورٍ وحياة وفرح لا نهاية لها.

## أ – السرّ

في عرف التقليد اللاهوتيّ البيزنطيّ، كلّ سرّ من أسرار الكنيسة هو تعبيرٌ عن قيمة الإنسان وكرامته الإلهيّة. ففي مطلع كل احتفال نهتف هكذا: «مباركة مملكة الآب والابن والروح القدس». فالمعموديّة تضفي على الشخص الإنسانيّ ثوبَ المجد الذي هو المسيح، فيضحي في الوقت عينه حاملاً المسيح على حدّ قول القدّيس بولس: «أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم، المسيح قد لبستم» (غلا ٣: ٢٧). أمّا سرّ التثبيت المدعوُّ أيضاً «ختم الروح القدس»، فإنّه يدخله إلى ملكوت الله. وفي سرّ الإفخارستيّا يتشبّع الجسم الإنسانيّ من ألوهيّة المسيح ويمتلئُ حبورًا. وقد عبّرت صلاة الشكر الختاميّة في القدّاس الإلهي عن هذه العلاقة في أسلوب يمور رقّةً وعذوبةً:

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



«يا من أعطاني برضاه جسده غذاء، يا من هو نارٌ يحرق غير المستحقين، لا تحرقني يا جابلي، لا تحرقني، بل تغلغل في أوصال أعضائي، وفي كل مفاصلي وكليتيّ وقلبي...

أظهرني أنا خاصّتك مسكنًا لروحك وحده، فلا أكون فيما بعد مسكنًا للخطيئة...

فإنّك أنت وحدك قداسةُ نفوسنا وبهاؤها، أيّها الصالح، وإليك نوجّه المجد جميعُنا كل يوم كما يليق، بما أنّك الإله السيّد...».

ويمهر سرُّ التثبيت حواسّنا الخمسة وكلّ عضو من جسمنا بالروح القدس، فيقيم مسكنه في ما بيننا كي لا نضلّ من بعد. إنّه الروح «الذي لا يموت»، به نصير هياكل الله وأعضاء الكهنوت الملوكيّ. وفي حفلة الزواج يشهد المؤمنون، من خلال وضع الأكاليل الملكيّة، لحضور جسد المسيح السرّي في حياة الرجل والمرأة، فيهتفون بفرح وحبور لكهنوتها الملوكيّ.

ويعتقد المسيحيون أنّه حينما يشعر الرجل والمرأة بانسجامهما التامّ واستسلامهما الواحد للآخر دون خجل، يكتشفان الله في حياتهما ويشتركان في كهنوت السيّد المسيح الملوكيّ. يقول يوحنّا الذهبيّ الفم في هذا الصدد: «إنّ اتّحادهما ليس من هذا العالم، إنّما صورة الله الحقيقيّة». وفي أيّامنا الحاضرة أشخاص يرفضون الارتباط بميثاق قانونيّ أو كنسيّ، ويرون في ذلك انتهاكًا لحريّتهم وحياتهم الخاصّة، فيرتبطون للعيش معًا بقسَم أو بقرار عميق يجمع حبّهما، إلاّ أنّه يبقى ناقصاً.

لا شكّ أنّ الكنيسة تحترم شعور أبنائها، وتقدر مسيرة كل واحد منهم، بيد أنّها تشدّد على أنّ حفلة الإكليل ليست انتهاكًا لحياتهم الخاصّة ولا فريضة اجتماعيّة. إنّها حفلة من نوع آخر، لكونها تغدق على العروسين النعم الإلهيّة، كي تصونهما وتشجّعهما في سيرتهما الطويلة. وتتغنّى رتبة الإكليل بحريّة قرارهما الشخصيّ وبجمال عطائهما الفيّاض، هذا العطاء الذي هو هبة من الله ليرفع معنى الحب عظمة الشخص الإنسانيّ.

وكما أنّ حياة الفرد المنطوي على ذاته تطرح تساؤلات عدّة حول مدى اندماجه في المجتمع، هكذا بالنسبة إلى الزوجين اللذين يرفضان الاندماج في حياة المجتمع. فالإنسان كائن اجتماعيّ. فلا يعقل، والحالة هذه، أن يعيش وحده، بانيًا مملكة مغلقةً، وضاربًا بعرض الحائط مقاييس الحياة وأبعادها.

إنّ حياة الرجل والمرأة تفترض المثابرة والأمانة والجودة في العلاقة الشخصيّة. فحينما يشاطران الأهل والأصدقاء في كل شيء، يُسهمان في توثيق عرى الألفة والأخوّة بين

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



الناس، ويشتركان معهم في جسد المسيح السريّ. فالشركة، إذن هي تعبيرٌ عن معنى حياتها، وترسيخٌ لعلاقتها الإلهيّة العميقة.

إنّ اتحاد الرجل بالمرأة هو ابعد من أن يكون انغلاقًا على الذات. إنّه انفتاح على الله والمجتمع. فالمسيحيّ، على الرغم من قساوة الحياة ومصائبها، لا يجزع أبدًا، بل يستمدّ من السيّد المسيح القوّة، محوّلاً ألمه إلى فرح ويأسه إلى رجاء.

## ب – الكهنوت

إنّ اتحاد الرجل والمرأة بالزواج هو صورة لاتّحاد الله الآب والابن والروح القدس. إنّه أيضاً صورة لاتّحاد الله الابن بالإنسانيّة، الذي أضحى بفعل سرّ التجسّد الخالق والخليقة في آنٍ واحد. وهكذا تتجلّى البشرية في أبهى كمالها، لأنّ السيّد المسيح زرع في وسطها طبيعته الإلهيّة. فحينما نحتفل باتحاد الرجل والمرأة بالزواج، لا نحتفل به فقط من أجل إشباع رغبة طبيعية، بل من أجل السعي إلى الحياة والحب الكامنين في الله – الثالوث وفي الله الابن الحاضر في جسدنا البشريّ. وهذا ما يسمّى بالبعد الكهنوتيّ للزواج.

والأمر الذي يضفي على حفلة الإكليل رونقها وبهاءها، هو تلك الصورة الجميلة التي تشبّه اتحاد الرجل بالمرأة باتحاد المسيح بالكنيسة. هذه الصورة هي من القدّيس بولس، وقد سمّاها سرًّا: «إنّ هذا السرّ لعظيم» (أف ٥: ٣٢).

«فكما أحبّ المسيح الكنيسة، وبذل نفسه لأجلها»، هكذا ينبغي على الرجل أيضاً أن يتّحد بامرأته ويحبّها الحبّ عينه. «لقد قدّس السيّد المسيح كنيسته وطهّرها بغسل الماء، ليزفّها إلى نفسه كنيسة مجيدة، لا كلَف فيها ولا غَضن ولا شيء مثل ذلك» (أف ٥: ٢٧).

إنّ تعبير «تطهير» العروس «بغسل الماء» الذي أشار إليه القدّيس بولس في رسالته إلى أهل أفسس، ليس أمرًا غريبًا عن بلادنا الشرقية. فقبل العُرس، تجمع العروسُ مع صديقاتها ثيابها وتغسلها وتطيّبها، ثمّ تزيّنها بالحلى والجواهر، كي تقف أمام شريكها في أبهى جمالها. فكما يتّحد المسيح بالكنيسة ليقدّسها وينقّيها، هكذا تتّحد المرأة بالرجل لتزيده نموًّا وتقديسًا.

لا شكّ أنّ الرجل والمرأة يتساويان في أمور كثيرة، إلاّ أنّ لكل واحد مكانته وشخصيّته. فهما يسعيان في حياتهما الزوجية لبناء أسرة متضامنة قوامها الاحترام والتعاون المتبادلان.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



## ج - العهد

في عرفنا المسيحي هناك بَونٌ شاسعٌ بين مفهوم لفظتي عقد (contract) وعهد (covenant). فالعقد له صفة قانونية وشرعية إلى حدّ أنّه يضعف من حرّية الرجل والمرأة وانطلاقتها. أمّا الزواج المسيحي فيُبنى على العهد لا على العقد. ولا عجب، فالعهد هو أبعد من أن يكون واجبًا أو إلزامًا. إنّه موقف حياتي يتخطّى لغة القانون والشرع، لأنّ استسلام الزوجين الواحد للآخر يسمو كل شيء، وعطاءهما لا يعرف حدًّا. لذا لا تتردّد الكنيسة في تتويجهما، لأنّ سرّ الإكليل يكشف للرجل والمرأة مقدار قيمتهما الملكيّة أمام الله وأمام كلٍّ منهما.

وتشير الصلاة الأولى من رتبة الإكليل إلى أبعاد هذا العهد بين الرجل والمرأة، وإلى حضور الله كشريك وصانع لوحدتهما. وتذكّرنا هذه الصلاة بتدخّل الله في مصير الإنسان، كيف وضع الحياة في الأحشاء العاقرة وزرع الخصب في أجسام الرجال الضعيفة، صانعًا منهم آباءً لأمم كثيرة:

«أيّها الإله الطاهر، مبدعُ الخليقة كلها؛ يا من لمحبّته للبشر حوّل ضلع آدم الجدِّ الأوّل إلى امرأة، وباركهما وقال: انميا واكثرا وتسلّطا على الأرض، وجعلهما كليهما بالزواج واحدًا؛ لأجل ذلك يترك الرجل أباه وأمّه ويلزم امرأته، فيصيران كلاهما جسدًا واحدًا، وما جمعهما الله فلا يفرّقهما إنسان؛ يا من فتح مستودع سارة وبارك إبراهيم خادمه وجعله أبًا لأمم كثيرة؛ يا من منح إسحق رفقة وبارك نسلها؛ يا من قرَن يعقوب براحيل، ومنه أخرج الآباء الاثني عشر؛ يا من زوّج يوسف بأسينات، ومنحهما افرام ومنسّى ثمرة لزواجهما؛ يا من استجاب زخريا وأليصابات وجعل ولدهما سابقًا للسيّد؛ يا من، من أصل يسّى، أنبت بحسب الجسد الدائمة البتوليّة ومنها تجسّد ووُلد لخلاص جنس البشر؛ يا من حضر في قانا الجليل بنعمته التي لا توصف ووفرة صلاحه وبارك العرس القائم هناك، لكي يعلن أنّه يريد الزواج الشرعيّ وما ينشأ عنه من التوالد...»(١).

وتستند هذه الصلوات الليترجية في معظمها إلى العهد القديم وإلى تدخّل الله في مسار التاريخ الإنسانيّ، لسببين: أوّلاً، لتشدّد على أنّ الديانة المسيحيّة ليست وليدة الصدفة أو وليدة ردّة فعل على بعض الاعتقادات السائدة قديمًا، بل، على العكس من ذلك، إنّها تكملةٌ وامتدادٌ لتاريخ البشرية الواحد، وكشفٌ لصورة الإله الواحد الكائن منذ بدء العالم.

---

(١) **كتاب الإفخولوجي الصغير**، المطبعة البولسيّة، ١٩٦٨، ص ١٠٥ - ١٠٦

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



أمّا السبب الثاني فهو التاكيد أنّ الله هو هو، يبقى أمينًا لوعوده عبر التاريخ. فقد حافظ على استمراريّة الولادة عبر العصور، بتدخّل منه، أحيانًا بطريقة مباشرة، ليبقي البشرية قريبة منه، حتّى يوم تجسده.

وقد ركّزت الكنيسة على بعض الأحداث من العهد القديم لاقتناعها الراسخ بأنّ الله، ما برح يعمل في حياة الإنسان، مسبغًا عليه حبّه ونعمه، كي يكمّل مسيرة الخلق والإبداع هذه.

وإلى جانب سمات العافية التي تتجلّى عادةً في عدد الأولاد، تشدّد الصلاة نفسُها على الازدهار الذي ينبغي أن يعمّ كل أسرة، وتذكّرنا بأهميّة الغنى، لا من أجل رفاهية العيلة فحسب، بل من أجل المشاركة مع الفقراء ومساعدتهم. فتصف هذه الصلاة، في أسلوب بهيّ، الرؤية المستقبليّة لكل عيلة:

«أنت أيّها السيّد القدّوس، استجب دعاءنا نحن عبيدك. وكما حضرت هنالك احضر هنا حضورًا غير منظور، وبارك هذا العرس وامنح عبدَيك هذين (فلان وفلانة) حياةً سلاميّة وأيّامًا مديدة وعفّة ومحبّة متبادلة في رباط السلام، ونسلاً طويل العمر، ونعمة الأولاد، وإكليل المجد الذي لا يذوي. أهّلهما أن يريا أبناء بنيهما. احفظ مضجعهما في حمًى أمين، وأعطهما من ندى السماء من فوق، ومن دسم الأرض. املأ بيتهما من القمح والخمر والزيت ومن جميع الخيرات لكي يوزّعا على المحتاجين. وامنح الحاضرين أيضاً معهما كل الطلبات الآئلة الى الخلاص»(٢).

(٢) **المرجع السابق**، ص ١٠٦ – ١٠٧

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

# رتبة الإكليل

رتبة الإكليل في الطقس البيزنطيّ أشبه بمدرسة فنّ حياتية، تقود خطى العروسين نحو قيَم الزواج السامية وأبعادها، إذ تدعوهما إلى التأمّل بجمال العلاقة بين المسيح والكنيسة، وتحثّهما على التشبّه بها.

وتوجز الرتبة هذه العلاقة في أربع نقاط: الأمانة والكرامة الملوكيّة والتراتبيّة وعدم انحلال الزواج.

## أ – الأمانة

هي عصب الحياة الزوجيّة وديمومتها، عليها يبني الزوجان كل آمالهما ومستقبلهما. وهي تتجلّى في دلائل حسيّة يعبّر فيها الواحد للآخر عن تعلّقه بشريكه واهتمامه بكل حركة يقوم بها. فالأمانة بين الرجل والمرأة هي حضور وانتباه متناغمان، لا بل استسلامٌ واعٍ ومرهف يطال أدقّ تفاصيل حياتهما.

فكما أحبَّ المسيحُ الكنيسة ومنحها حبّه وحياته دون قيد أو شرط، كذلك ينبغي على الرجل أن يحبَّ امرأته كنفسه وأن يبقى لها أمينًا حتّى النهاية. فلا سبيل إلى السعادة الحقّة إلاّ من خلال الأمانة التي هي بذل وعطاء كلّيّان، بحيث يضحّي كل واحد بذاته ورغائبه إرضاءً لشريكه. ألم يقل السيّد المسيح «ليس حبٌّ أعظم من أن يبذل الإنسان نفسه عن أحبّائه»؟ (يوحنا ١٥ :١٣).

وتشير رتبة الإكليل إلى عمل الله السخيّ في حياة بعض عائلات العهد القديم، التي كان يُشهد لها بالفضيلة والأمانة، وكيف أسبغ على هذه العائلات نعمه وحنانه:

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



«باركهما أيّها الربُّ إلهنا كما باركت إبراهيم وسارة!
باركهما أيّها الربُّ إلهنا كما باركت يواكيم وحنّة!
باركهما أيّها الربُّ إلهنا كما باركت زكريّا وأليصابات!...»[1].

وفي الطقس الكلداني صلاة رائعة تدعو العروسين إلى تعميق أواصر الحبّ بينهما، وإلى التشبّه بالحبّ الإلهي النابض في الثالوث الأقدس:

«ألهب يا ربُّ العريس والعروس بنار حبّك،
يا ليتهما يستيقظان كل صباح من حياتهما مزدادين حبًا وفرحًا».

وتضيف الصلاة:

«يشبه العريس وهو في خدره شجرة الحياة في الفردوس،
ثمارها تغذّي وأوراقها تعيل وتشفي،
وتشبه العروس كأس ذهب خالص،
تفيض حليبًا وتقطر عسلاً،
ليت الثالوث الأقدس يجعل من خدرهما مسكنًا له».

ولكي يحافظ العروسان على حبّهما وأمانتهما لا بدّ لهما من أن يسعيا كل يوم إلى التخفيف من حدّة الرتابة والتشتّت. فالحبُّ لا يُصان إلاّ بالوعي والتفهّم لضعف الآخر وطبعه. ولو تأمّلنا مليًّا المشاكل التي تعترض حياة الأُسَر في أغلب الأحيان، لوجدنا أنّ معظمها ناتج إمّا عن التحرّر المزيّف وإمّا عن غياب تلك النقاوة في القلب.

إنّ الخوف وفقدان الثقة يحوّلان العلاقة بين الرجل والمرأة إلى عمل جنسيّ ماديّ بحت، أو إلى صفقة تجاريّة. فلا حبَّ من دون أمانة ولا ديمومة للزواج من دون ثقة متبادلة.

## ب – الكرامة الملوكيّة

الحياة هبة من الله. فكل نسمة هواء نتنشّقها إنّما تعبّر عن تغلغل نعمته في أوصالنا وعروقنا. «مساءً وصباحًا وعند الظهيرة»، نصرخ قائلين: «أعطنا يا ربّ أن نستحقّ هذه الساعة... أعطنا يا رب أن نستحقّ هذا النهار... وهذا الليل المقبل علينا... أن أستحقّ

(١) **كتاب الإفخولوجي الصغير**، المطبعة البولسيّة، ١٩٦٨، ص ١٠٩ – ١١٠.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



هذا الوقت»، أي أن أكون كاهنًا ممتلئًا فطنة وانتباهًا، كي أُسهم في رفع كرامة كل شخص ألتقيه، لأنّه يحمل الله في قلبه.

فالكرامة الملوكيّة هي أن يجد ملءَ بهائه في العطاء والإصغاء، لا في الأخذ واللامبالاة: «العطاءُ أكثرُ غبطةً من الأخذ»، هذا ما علّمنا إيّاه سيّدنا يسوع المسيح. وتتجلّى هذه الكرامة في علاقة الإنسان بالطبيعة. فكلَّ مرّة تهدي إلينا الطبيعة خيرَها وجمالَها، ينبغي علينا أن نهدي إليها حبَّنا واحترامنا واعتناءَنا بها. وكلَّ مرّة يهب لنا شخصٌ ذاته، علينا أن نبادله الحبّ عينه.

هذا هو معنى كرامة الكهنوت. أغنية جميلة تعبّر عن تجلّي الثالوث الأقدس في الكون، ضمن حركة لامتناهية تشدّنا إلى الاتّحاد الكامل بطبيعته. وفي الزواج ينتقل المرءُ من حياة الانطواء والانفراد إلى حياة جديدة، مبنيّة على السخاء والمقاسمة.

وقبل أن يبلغ العروسان إلى الخدر الإلهي، يتوّجان بإكليل المجد. فالإكليل هو علامة الانتصار والغلبة. فقد كتب القدّيس بطرس إلى المسيحيّين الأوائل في هذا الصدد قال: «ومتى ظهر رئيسُ الرعاة تنالون إكليل المجد الذي لا يذوي» (١ بطرس ٥: ٤). ويقول القدّيس بولس أيضاً: «كل مجاهد يضبط نفسه في كل شيء... من أجل إكليل لا يفنى» (١ كور ٩: ٢٥).

وتعود فكرة الإكليل كعلامة انتصار في صلواتنا مرّات كثيرة للتركيز على الكرامة الملوكية في الزواج المسيحي. وإبّان الحفلة يتناول الكاهن إكليلاً ويرفعه فوق رأس العريس، وآخر فوق رأس العروس وهو يقول: «يكلَّل عبد الله على أمة الله باسم الآب والابن والروح القدس». ثمّ يضع الإكليلين فوق رأسيها ويمنحهما البركة الأولى. وتعبّر الجماعة عن رضاها بكلمة، آمين. ويقول الكاهن الصلاة عينها أمام العروس باسطاً يديه بشكل صليب فوق رأسها: «تكلَّل أمةُ الله على عبد الله باسم الآب والابن والروح القدس». ويعيدها المحتفل للمرّة الثالثة، ويباركهما راسمًا على رأسيهما شكل صليب، وتجيب الجماعة، آمين. وترمز المرّات الثلاث إلى الله – الثالوث وحضوره. فإبّان حفلة الإكليل يفيض الله مجده على العروسين كي ينعما بحياة سعيدة في ظلّ محبّته وحنانه.

لقد استوحت الكنيسة المقدّسة هذه العادة الجميلة من حفلات تتويج الملوك والملكات في الإمبراطوريّة البيزنطيّة. فبالإكليل يرقى الملك إلى درجة الألوهة، ويشترك في قدرة الله

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



كي يسوس مملكته تحت كنف الله وعدله. أمّا تتويج الملكة فهو انعكاس لبهاء الملك، لا لكونها قرينته، بل لأنّها نالت بملء حريّتها الإكليل من يد البطريرك. فهي ملكةٌ بفعل التتويج وليس بفعل الزواج. وهذا ما تصرّ عليه الكنيسة المقدّسة في رتبة الإكليل، لاعتقادها بأنّ الإكليل إنّما يضفي على العريس والعروس صبغة ملكية، فيضحيان صورة للملك الإلهي على الأرض.

وفي الحال، عقب حفلة الإكليل، ينشد الحاضرون ابتهاجًا هذه الآية من المزمور، احتفاءً بقيمتهما وكرامتهما الملوكيّة:

«أيّها الربُّ إلهنا بالمجد والكرامة كلّلهما، وعلى أعمال يديك سلّطهما».

## ج - التراتبيّة

في عرف اللاهوت الشرقي تراتبيّة طبيعيّة بين الرجل والمرأة، تنجم عن نظرة واقعية للحياة، ولا تُنقص شيئًا من كرامة أيّ منهما. ويستند هذا اللاهوت إلى قول الرسول بولس في رسالته إلى أهل أفسس: «الرجلُ هو رأس المرأة، كما أنّ المسيح هو رأس الكنيسة» (٥: ٢٣).

وتتجلّى هذه «التراتبيّة» في إيقونة يواكيم وحنّة، إيقونة اللقاء، ولاسيّما في قامة يواكيم. فهو أطول منها، والهالة التي تحيط برأسه تزيد هالة حنّة بريقًا ولمعانًا. أمّا مدخل منزله فهو أعلى ببعض الشيء من مدخل بيتها. وعلى الرغم من هذا التفاوت، لا نفكّر البتّة بأنّ دور يواكيم هو أفضل من دور حنّة.

ولا غرو في ذلك، فالنظرة المسيحية إلى الله تُبنى على هذه «التراتبيّة». فالكلّ يسلّم بأنّ الآب هو رأسُ الثالوث الأقدس، وبأنّه نبعُ الألوهة. وفي كل صلاة نتلوها نذكر الآب أوّلاً، والابن ثانيًا، والروح القدس ثالثًا. بيد أنّ هذه الصيغة لا تخلق أيّ تفاوت بين الأقانيم الثلاثة في المفهوم المسيحـيّ. فنحن نؤمن بإله واحد، في جوهر إلهيّ واحد، مقدّمين لكل أقنوم العبادة ذاتها والكرامة ذاتها، ومشدّدين كلّ مرّة على التناغم الثالوثيّ الذي يوحّد كيانهم. على ضوء صورة الثالوث الأقدس يمكننا إذن أن نفهم معنى التراتبيّة بين الرجل والمرأة. في رتبة الإكليل يتوّج العريسُ ملكًا، أوّلاً، ثمّ تتوّج العروس ملكة، ثانيًا.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



إنّ التراتبيّة القائمة بين الرجل والمرأة لشبيهة أيضاً بالتراتبيّة القائمة بين المسيح والكنيسة. فالعلاقة بينهما تُبنى على الحبّ والخدمة، وليس على الهيمنة والتسلّط. فالذي تُسند إليه سلطةٌ ما، لا بدّ له من أن يتدرّب على الحبّ والسخاء، على غرار السيّد المسيح الذي «أحبّ كنيسته وبذل نفسه لأجلها. وهكذا، فعلى الرجل أن يحبّ امرأته كما أحبَّ المسيحُ الكنيسة... أوَلسنا أعضاءُ جسده، من لحمه ومن عظامه؟» (راجع أف ٥: ٢١ – ٣٣).

إنطلاقًا من مفهوم الرسول بولس للزواج لا نخشى بعد أن نردّد قوله: «فكما تخضع الكنيسة للمسيح، كذلك فلتخضع المرأة لرجلها في كل شيء» (أف ٥: ٢٤).

إنّ قول بولس الرسول «لتخضع المرأة لرجلها»، لا ينطوي على أيّ انتقاص لكرامة المرأة. إنّها كالفجر تضيءُ حياة الرجل بنور جمالها، وترفعه إلى مستوى الكرامة الإلهيّة، كي يُضحي صورةً حيّةً للسيّد المسيح. «فالمرأة هي مجدُ الرجل» (١ كور ١١: ٧)، تساعده بحضورها وجمالها على إيجاد معنى لوجوده، فيكتشف يومًا بعد يوم أنّه مرآة للسيّد المسيح تعكس نوره في حياته! فطوبى للمرأة التي تنعم برجل مثل هذا، قد وعى حضورَ المسيح الحيّ في حياته! إنّه لشرفٌ عظيمٌ للرجل أن يكون رأسًا لامرأته وأن يبادلها دومًا الحبّ والعطاء. وطوبى للرجل الذي وجد امرأة مخلصة تتفانى في حبّه وخدمته! فلقد أوضح سيّدنا يسوع المسيح في إنجيله أنّ الحياة المسيحيّة هي خدمة وليست تسلّطاً، قال:

«تعلمون أنّ الذين يُعدّون قادةً للأمم يتسلّطون عليهم، وعظماءَهم يسودونهم. وأمّا في ما بينكم فليس الأمر كذلك؛ بل من أراد فيكم أن يصير كبيرًا، يكون لك خادمًا. ومن أراد فيكم أن يكون الأوّل، يكون للجميع عبدًا. فإنّ ابن البشر لم يأتِ ليُخدَم بل ليَخدُم، ويبذل نفسه فداءً عن كثيرين» (مر ١٠: ٤٢ – ٤٥). «ليكن الأكبر فيكم كالأصغر، والمتقدّم كالذي يخدم... أنا في وسطكم كالذي يخدم!» (لو ٢٢: ٢٦ – ٢٧).

وإبّان العشاء السرّي أردف من جديد:

«فإذا كنتُ، أنا الربّ والمعلّم، قد غسلتُ أرجلكم، وجب عليكم، أنتم أيضاً أن يغسل بعضُكم أرجلَ بعض» (يو ١٧: ١٤).

إنّ تعليم ربّنا يسوع المسيح هو حقّ وحياة. فالتراتبيّة بين الرجل المرأة ليست انتقاصاً بل مجدٌ، لأنّها تقرّب الواحدَ من الآخر، وبالتالي من المسيح.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



بعد تتويج العروسين، نقرأ نصًّا من رسالة القدّيس بولس الى أهل أفسس، عن علاقة الرجل بالمرأة وعلاقة المسيح بالكنيسة. يقول:

«أيّها الرجال، أحبّوا نساءكم كما أحبَّ المسيحُ الكنيسة: لقد بذل نفسه لأجلها ليقدّسها ويطهّرها بغسل الماء بالكلمة» (٥: ٢٥ – ٢٦).

ومن ثمّ، يتلو الكاهن إنجيل عرس قانا الجليل (يو ٢: ١ – ١٢). بهذه الآية الأولى، آية تحويل الماء إلى خمر، يُظهر السيّد المسيح عظمة الزواج وقيمته الإلهيّة.

بعد تلاوة الإنجيل المقدّس، يقول الكاهن هذه الصلاة الجميلة، معدّدًا فيها صفات الحياة الزوجيّة:

«أيّها الربّ إلهنا، يا من استحسن بتدبيره الخلاصيّ أن يكرم العرس بحضوره في قانا الجليل، أنت أيّها السيّد احفظ عبدَيك اللذين سُررتَ بأن يقترنا في السلام والوفاق. أظهر عُرسهما مكرّمًا. احفظ مضجعهما طاهرًا. ارتض أن تظلّ عيشتُهما معًا نقيّة، وأهّلهما أن يبلغا شيخوخةً خصيبةً في قلبٍ طاهر، مؤتمرين بوصاياك»[٢].

لقد وضعت الكنيسة هذه الصلوات لتذكّر العروسين بقيمة الزواج. إنّه دعوة إلى البطولة، كي يحافظا على حبّهما وعفّتهما، تحت كنف الله. وما تشديد الكنيسة على هاتين الصفتين سوى دعوة ملحّة كي يكتشفا في ذاتهما أصالتهما الإلهيّة، ويتّحدا معًا دون أيّة مشاركة مع شخص آخر. فكلّما سارا على دروب الحياة وتعاريجها، شعرا في داخلهما بأهميّة الارتباط وسموّ الحب وأزليّة العلاقة. ومن النافل، هنا، أن نذكّر بضرورة السخاء والتواضع إبّان الحياة الزوجيّة، لأنّ في ذلك ضمانة لحياتهما ومستقبلهما. ولكي تشدّد الكنيسة على أنّ الله هو الذي يرعى اتّحادهما ويثبّت أمانتهما، تقدّم لهما كأسًا من الخمر. في الماضي كانت الجماعات المسيحيّة تحتفل بالإفخارستيّا لتعبّر أكثر فأكثر عن الشركة وعن حضور الله في السرّ. وقد تمنّى كثيرون على الكنيسة أن تثبت هذه العادة من جديد. بيد أنّه من الأفضل أن يُترك للأسقف حقُّ التصرّف حسب الظروف والأحوال.

### د – رمز الكأس المشتركة والتطواف

ترمز الكأس إلى أنّ الحياة التي كانت تسري في جسدَين منفصلين ستتدفّق الآن في جسد واحد. وترمز أيضاً إلى أنّ الرجل والمرأة سوف يشهدان في حياتهما لتحقيق اتحاد المسيح بالكنيسة والإنسانيّة.

(٢) **المرجع السابق**، ص ١٢٧.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



يقول القدّيس يوحنّا الذهبيُّ الفم في عظته الثالثة عن الزواج:

«عندما يوحّد الحبُّ العروسين يزيدهما قربًا من الله، لأنّ حبّهما لا يُستلهم من الطبيعة فحسب بل من الله. إنّهما صورة المسيح الذي، على الرغم من اتحاده بعروسه الكنيسة، يبقى متّحدًا بالآب...».

ثمّ يدور الكاهن والعروسان والإشبينان حول الهيكل، في تطواف مهيب، دلالةً على الصبغة الاحتفاليّة لتكريسهما، وعلى الكرامة الملوكيّة التي ينبغي أن يتحلّيا بها خلال حياتهما، تمامًا كما يجري عندما تتمّ سيامة أسقف أو كاهن في الكنيسة. فيرنّم الشعب بالترنيمة عينها وباللحن عينه، لأنّ الزواج والكهنوت يتمتّعان بالكرامة عينها. فكما أنّ الكهنوت هو أزليّ، كذلك الزواج هو أيضاً أزليّ.

«يا أشعيا اهتزَّ طربًا، فإنّ البتول قد حملت في أحشائها وولدت ابنًا هو عمّانوئيل، إلهًا وإنسانًا معًا، واسمُه المشرق، فإيّاه نعظّم، مغبّطين العذراء».

## هـ - عدم إنحلال الزواج

وتشدّد رتبة الإكليل في القسم الأخير منها على طابع الأمانة الدائم وعلى ثبات الزواج وديمومته بين الرجل والمرأة. «لذلك يترك الرجل أباه وأمّه ويلزم امرأته فيصيران كلاهما جسدًا واحدًا» (تكوين ٢ : ٢٤). ويضيف السيّد المسيح إلى هذا القول: «ما جمعه الله فلا يفرّقه إنسان» (متّى ١٩ : ٦). إنّ احترام هذا المبدإ من شأنه أن يرفع من كرامة الزواج وقدسيّته.

لقد اختبر الإنسان في الكتاب المقدّس حبّ الله وأمانته. فالله يبقى أمينًا حتّى ولو عاش الإنسان في خيانة دائمة. لذا، والحالة هذه، لا بدّ للرجل والمرأة اللذين خُلقا على صورة الله ومثاله، من أن يسعيا لترسيخ روح الحبّ والأمانة بينهما، كي يتشبّها بحبّ الله وأمانته للبشر. فلا يحقّ لأحد، لا في السماء ولا على الأرض ولا بعد الموت أن ينقض العهد الذي أُبرم بحريّة بين الرجل والمرأة. وهذا ما تنشده إحدى الصلوات في رتبة الإكليل، منوّهة بديمومة الزواج وخلوده:

«أيّها الإله القدّوس، يا من جبل الإنسان من تراب، وبنى من جنبه امرأة على شبهه لتكون له عونًا وزوّجه بها،



coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



لأنّه هكذا حسن لدى عظمتك أن لا يكون الإنسان وحدَه على الأرض؛
فأنت الآن أيّها السيّد، أرسل يدك من مسكنك المقدّس، وأقرن عبدك وأمتك لأنّ منك اقترانَ الرجل والمرأة.
إجمعها بالاتّفاق، كلّلها بالمحبّة، وحّدهما ليصيرا جسدًا واحدًا.
أنعم عليها بثمرة الحشى، والتمتّع بأولاد أصحّاء، وبسيرة غير ملومة.
لأنّ لك العزّة ولك الملك والقدرة والمجد أيّها الآب والابن والروح القدس، الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين»(٣).

فعلى غرار الحبّ والأمانة اللذين يجمعان المسيح والكنيسة، ينبغي على الرجل والمرأة أن يتحلّيا في حياتهما الزوجيّة بالحبّ والأمانة عينهما.

## و - رفع الإكليل

كما أشرنا سابقًا في أصل الزواج المقدّس وجوهره مراحلُ أساسيّة. نوجزها في ثلاث:
تُبنى المرحلة الأولى على الاكتشاف والوعد. ففيها يكتشف الشاب والفتاة مخطّط الله في حياتهما. وما الحبُّ المتبادَل سوى نتيجة لهذا الاكتشاف. ثمّ يتّفقان على توظيف الواحد من أجل الآخر، وعلى الاتحاد نفسًا وجسدًا ضمن التزام واعٍ وناضج. ويقتصر دور الكنيسة إبّان هذه المرحلة على مباركة قرارهما في رتبة تدعى «رتبة عقد الخطبة». فيتبادل الشابّان الخاتمين رمزًا للوعد الكبير الذي سوف يُلزم حياة الواحد تجاه الآخر. وتُنسب هذه المرحلة إلى عمل الله الآب مصدر كل علاقة وحب.

وتأتي رتبة الإكليل في المرحلة الثانية. في غمرة الحبّ، تتجلّى شخصية كل واحد منهما ليعبّر عن عطائه واستسلامه الكلّي لشريكه. وبعد تتويجهما، يضحيان صورة حيّةً لله ويُسهمان في إبراز الرابط الإلهي بين السيّد المسيح والكنيسة، الذي هو رباطُ سلامٍ وتناغمٍ وخلاص. هذه المرحلة هي من عمل الله الابن.

أمّا المرحلة الثالثة، فهي المغامرة الكبرى على دروب الحياة. فبعد التتويج ينصرف العروسان مدة ثمانية أيّام من أجل الصلاة واختبار قيمة لقائهما السامي. ثمّ يقفلان راجعين من جديد إلى الكنيسة لإقامة صلاة الشكر ولرفع الإكليلين.

---

(٣) **المرجع السابق**، ص ١١٣ - ١١٥.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



وإبّان صلاة رفع إكليلَي العروسين يتلو الكاهن على رأس العريس هذه الصلاة:

«عظّمك الله، أيّها العريس مثل إبراهيم، وباركك مثل إسحق، وكثّرك مثل يعقوب، سِرْ في السلام واحفظ بالبرّ وصايا الله».

ثمّ يرفع الإكليل عن رأس العروس ويقول:

«وأنتِ أيّتها العروس، عظّمكِ الله مثل سارة، وأبهجكِ مثل رفقة، وكثّركِ مثل راحيل، اهنإي برجلكِ، حافظةً حدود الناموس، لأنّه هكذا حسُن لدى الله»[٤].

ويختم الكاهن بهذه البركة التي فيها يعدّد صفات الزواج ومحاسنه:

«ليباركْكُما الآبُ والابنُ والروحُ القدس الواحدُ في الجوهر، مُبدئُ الحياة، اللاهوتُ الواحد والمُلكُ الواحد. ويمنحْكُما طولَ الأيّام وكثرة الأولاد والنموّ في الحياة والإيمان. ويملأْكُما من جميع خيرات الأرض. ويؤهّلْكُما للتمتّع بما وعد به من الخيرات، بشفاعة والدة الإله القدّيسة وجميع القدّيسين»[٥].

وبعد هذه البركة، تبدأ المرحلة الأساسيّة من الإكليل: حياة العيلة المسيحيّة، تحت كنف الروح القدس وحمايته.

فهو الذي سيرافق الرجل والمرأة في مسيرة حياتهما، كي ينموا في إنسانيّتهما ويعيشا سرَّ كرامتهما في كل عمل يعكفان عليه. بحضور الروح القدس الساهر لا تخضع الحياة من بعد للعبَث أو الجمود. فكلُّ حركة وكلُّ تصور إنّما ينصبّ في تصميمه المحيي، ليقدّس كلَّ واحد منهما، كيما يكتشف كرامته الإلهيّة في حياته. إنّ الوعي لهذه الكرامة من شأنه أن يعمّق معنى الفرح والحبّ في مسيرتهما الطويلة.

هذا هو مفهوم الزواج المسيحيّ. وتلك كانت علاقة يواكيم وحنّة، والدَي مريم والدة الإله، والتي، في عرفنا، هي خير نموذج للعيلة المثاليّة.

(٤) **المرجع السابق**، ص ١٣٤.

(٥) **المرجع السابق**، ص ١٣٦.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

# الزواج ثانية

لقد سبقنا وأشرنا، انطلاقًا من تعليم سفر التكوين (٢ : ٢٤)، إلى استمراريّة الزواج وديمومته. ولقد استند السيّدُ المسيح إلى هذا التعليم، ليعلن بدوره إنّ الرجل والمرأة، في الزواج، إنّما «يصيران جسدًا واحدًا» (متّى ١٩ : ٥). بيد أنّ موسى قد سمح بالطلاق. فهل هناك من تناقض بين كلام السيّد المسيح وكلام موسى؟ يقول سفر تثنية الاشتراع (٢٤ : ١ – ٢) في هذا الصدد.

«إذا أخذ رجل امرأة وتزوّجها، ثمّ لم تنل حُظوة في عينيه، لأمرٍ غيرِ لائق وجدَه فيها، فليكتب لها كتاب طلاق ويسلّمها إيّاه ويصرفها. فإذا خرجت من بيته ومضت، يمكنها أن تصير لرجل آخر...».

لم يرضَ السيّد المسيح بأن تُبعد المرأة عن بيتها بمثل هذه السهولة. لا بل حرّم على أتباعه القيام بأيّة علاقة مع امرأة تركها زوجها لأسباب غير صوابية. فإنّ شغل السيّد المسيح الشاغل إنّما هو الحفاظ على كرامة الإنسان وأصالته:

«وإنّي أقول لكم: من طلّق امرأته، إلاّ في حالة الزنى، وتزوّج أخرى، فقد زنى. فقال له التلاميذ: إن كانت هذه حال الرجل مع امرأته، فالأولى له أن لا يتزوّج! فقال لهم: ليس الجميع يفهمون هذا الكلام، بل أولئك الذين أوتوا أن يفهموا وحدهم» (متّى ١٩ : ٩ – ١١).

ولكي يدعم فكرته المحافظة على قيمة الإنسان وكرامته، يضيف:

«أمّا أنا فأقول لكم: إنّ من طلّق امرأته، إلاّ في حالة الزنى، فقد عرّضها للزنى...» (متّى ٥ : ٣٢).

لا شكّ أنّ السيّد المسيح يوجّه تعليم الإنجيل في شموليّته إلى كلّ إنسان، إلاّ أنّه لا يتناسى ضعف الإنسان وظروفه الحياتيّة. فهو يدعو كلّ إنسان إلى مُطلقيّة الإنجيل دون أن

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



يرغم أحدًا على اتّباعه، مظهرًا للملإ اختباره الإلهي، حسبما ورد في عظة الجبل، كينبوع نعمة وبركة وأمان وفرح.

«طوبى للمساكين بالروح فإنّ لهم ملكوت السماوات
طوبى للرحماء...
طوبى لأنقياء القلوب...» (متّى ٥: ٣ - ١٢).

وإنّ مثَل الشابّ الغنيّ لخيرُ دليلٍ على ما يُظهره السيّد المسيح من تفهّم واحترام في علاقته مع الإنسان. فقبل أن يبادر الشابّ بالتخلّي عن كلّ شيء، طلب إليه بكلّ بساطة أن يحفظ الوصايا. بيد أنّ هذا كان يطمح إلى مستوى حياتيّ يُضاهي مستوى الإنجيل: «يا معلم، كل هذا قد حفظتُه منذ صباي» (مر ١٠: ٢٠).

ويقول الإنجيل المقدّس: «فحدّق إليه يسوع وأحبّه، وقال له:

«إن شئتَ أن تكون كاملاً، فاذهب وبعْ كلَّ ما لك... ثمّ تعالَ اتبعني» (مر ١٠: ٢١). ويضيف الإنجيل: «فانقبض لهذا الكلام، ومضى حزينًا...» (١٠: ٢٢)، لأنّه غيرُ مدعوٍّ إلى مثل هذا الكمال. فتركه المسيحُ وشأنَه دون أن يحكم عليه. ولنتذكّر أيضاً ذلك الكاتب الذي تقدّم بحماسة بين يدي يسوع ليتبعه. فقد كان ردُّ السيّد واضحًا وصريحًا: «الثعالبُ لها أوجرة، وطيورُ السماء أوكار، أمّا ابن البشر فليس له موضعٌ يُسندُ إليه رأسه» (متّى ٨: ٢٠).

انطلاقًا من حياة السيّد المسيح وتعليمه تصرّ الكنائس المسيحيّة على عدم انفساخ الزواج، حتّى ولو سمحت ببعض الاستثناءات. لقد وُضعت القيَم الإنجيليّة لكل إنسان، بيد أنّها لا ترغم أحدًا على اتّباعها والعيش بحرفيّتها.

إنّ الكمال ممكن فقط «لأولئك الذين أوتوا أن يفهموا، وحدهم» (متّى ١٩: ١١). والكنيسة وعت، عبر الأجيال، رسالة المسيح السامية، وسعت إلى تحقيقها في تعليمها وحياتها، كما وعت في الوقت عينه صعوبة فرضها على كل شخص وتطبيقها في كل الحالات. فهي تسير على خطى المعلّم، وهمُّها الأوّل الذودُ عن كرامة الإنسان والاعتناء به، لاقتناعها الراسخ بأنّ حياته هي أقدس من كل شيء. في الزواج مثلاً حالات خاصّة قد تتنافى مع المبدإ العامّ والسامي للزواج، كالزّوج البريء (أو الزوجة) الذي تخلّت عنه امرأته دون أي سبب مقنع. في مثل هذه الحالة، ينبغي على الكنيسة أن تجد الحلول

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



العمليّة كي تحفظ أبناءها من الضياع والشرود، دون أن تنقصَ البتّة من قيمة الزواج وديمومته. فهنالك بعض المواقف الحرجة في حياة أبناء الكنيسة هي في غاية الخطورة، فينبغي معالجتها بمحبّة وموضوعيّة، وإلاّ تعرّض هؤلاء لشتّى التجارب والصعوبات. فهل من المنطقيّ أن نحمّل كلّ المسيحيّين أعباءً لا يقدرون حملها. وقد تنبّه اللاهوت الشرقيّ، على ضوء الإنجيل المقدّس، للمشاكل التي قد تعترض المسيحيّ في حياته، وحاول معالجتها من وجهة نظر إنسانيّة ومسيحيّة بحتة، استنادًا إلى ما يسمّيه بالتدبير الإلهيّ (Oikonomia). «فالتدبير» هو امتدادٌ لرحمة الله الوافرة الذي جاء «ليخلّص ما قد هلك» (متّى ١٨ : ١١). لقد ردّد السيّد المسيح هذا القول مرارًا فكان يقول: «جاء ابن البشر ليطلب ما قد هلك ويخلّصه» (لو ١٩ : ١٠). في مفهوم السيّد المسيح الإنسانيّةُ هي أثمن من أيّة شريعة. فلم يتردّد لحظةً في خرق الشريعة من أجل إعادة الاعتبار إلى قيمة الخطأة وكرامتهم. فخلّص المرأة الزانية من حكم الشريعة التي تجيز رجمَ كلّ من يزني بالحجارة. كما تحدّث مع امرأة سامريّة وطلب إليها أن تدعوه إلى بيتها، في حين أنّ مخالطة السامريّين كانت محظّرةً على اليهوديّ. ونقض مفهوم السبت وقال: «إنّ السبت جُعل للإنسان، لا الإنسان للسبت» (مر ٢ : ٢٢). وهناك مواقف إنجيليّة أخرى تعبّر عن حنان المسيح وقربه من الضعفاء والخطأة. فلكي ينشلهم من وطأة الخطيئة ويُعيد إليهم كرامتهم الإنسانيّة، كان يختلف إلى بيوتهم، ويحنو عليهم ويأكل معهم مشدّدًا ومشجّعًا. هذا هو مفهوم «التدبير» في الإنجيل الإلهي.

إنّ العودة إلى الممارسات السائدة في الكنيسة الأرثوذكسيّة الشرقيّة تشهد للمواقف الإنسانيّة والإنجيليّة تجاه الأرامل والأزواج المهملين. فهي لم تسمح قطُّ أن تسود النزعة الشرعويّة في عاداتها، فبقيت أمينة لقول السيّد المسيح: «السبتُ جُعل من أجل الإنسان». وما غاية القانون سوى الحفاظ على حقيقة السرّ وحيويّته، لا أن يربض كحجر الطاحون على أعناق الشعب.

يقول القدّيس إبيفانوس أسقف قبرص، الذي عاش في القرن الرابع:

«إنّ من يصعب عليه الحفاظُ على العفّة بعد وفاة امرأته، لأسباب صوابيّة كالزنى والفسق، فإن تزوّج بامرأة ثانية، (أو تزوّجت أرملة برجل آخر)، يقبله الكلمة الإلهيّ في عداد كنيسته دون أن يحكم عليه».

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



وقد فرض مجمع قيصريّة الجديد على الإكليروس السماح بالطلاق في حالة الزنى.

ويضيف الأب نيقولاوس ڤان در ڤال (Nicolas van der Wal): «من الأرجح أن تكون الكنيسة البيزنطيّة قد استوحت هذا الموقف من إنجيل متّى (٥:٥٣) فرأت في تحريضات عظة الجبل مثالاً أخلاقيًّا لكل مسيحيّ يسعى إلى الكمال. بيد أنّ هذا الهدف يتخطّى المسيحيّين العاديّين في حياتهم».

وهناك مقالةٌ نموذجيّة عن التدبير الإلهي للقدّيس باسيليوس، تبنّاها المجمع المسكونيّ السادس في القسطنطينيّة (٦٨٠)، في القانون ٢٥، ورد فيها:

«إنّ الذين تخلّى عنهم أزواجهم تعذرهم الكنيسة وتقبلهم لتناول القربان المقدّس، إن هم تزوّجوا من جديد».

ويضيف القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم إلى هذا القول:

«إنّه من الأفضل أن يُكسر الزواج من أن يهلك المرء».

وفي هذا الصدد، هناك مداخلة قيّمة للمطران إلياس الزغبي، إبّان المجمع الڤاتيكاني الثاني، يقول فيها: لقد أبقت الكنيسة الغربيّة على هذه العادة مئات السنين، ودعمها العديدُ من الأساقفة والباباوات والسينودسات، ولم تسعَ قطُّ إلى إبطال هذه العادة في الشرق، حتّى بعد أن تخلّت (أي الكنيسة الغربيّة) عنها.

إنّ حياة العزوبيّة تفترض دعوةً خاصة واستعدادًا بطوليًّا وإيمانًا نادرًا. أمّا ديمومة الزواج وأزليّته فهي مثالٌ سام وسخاءٌ مدهش يليق بالشخص الإنسانيّ ولكن ليس بمقدور كل شخص أن يعي هذا السموّ وهذا السخاء. فالأمانة التي ينبغي أن يتحلّى بها الرجل والمرأة هي أثمن من كل شيء، وينبغي الحفاظ عليها، وقد تسمح الكنيسة بالزواج الثاني مرغمة، لكونها تعطف على أبنائها وتحنّ عليهم.

ويسود الرتبة التي تبارك هذا الزواج، جوٌّ من الحزن والكآبة، دلالةً على بؤس الإنسان وشقائه، وكأنّها بطريقة غير مباشرة تشيد بطابع الزواج الأزليّ في مفهوم الإنجيل والكنيسة.

إذا حصل زواج ثانٍ، بعد موت أو طلاق (في الحالات التي ذكرناها)، تنزع عنه صبغة الإكليل، ويعقد كزواجٍ عاديّ. فإبّان العقد تُلغى كل المظاهر الخارجيّة من تطواف وقرع للأجراس، وكذلك البخور الذي تعبّر به الكنيسة عن البعد الإلهيّ الذي يتمتّع به

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



الشخص الإنسانيّ. وأخيرًا، لا يشترك الزوجان بكأس الخمر ولا يتناولان جسدَ المسيح ودمه. إنّ الجوّ المقتّم الذي يسود هذه الرتبة لدليلٌ واضحٌ على أنّ الزواج الثاني ليس أمرًا عاديًّا، وإنّما تسمح به الكنيسة أحيانًا، انطلاقًا من ضعف الإنسان وعطبه، ضمن شروط معيّنة.

بعد أن تخلّت الكنيسة الغربيّة عن مبدإ التدبير الذي ساد ردحًا من الزمن في عاداتها وتقاليدها، اتّبعت نظامًا آخر يُعرف ببطلان الزواج. ويقوم هذا النظام على إعلان بطلان الزواج كلّ مرّة لا تتوفّر فيه العناصر والشروط الرئيسة لعقده. وينبغي أن يتمّ هذا البطلان في جوٍّ من الرضى والتفاهم. في هذه الحالة، يحقّ لكلٍّ من الزوجين أن يتزوّج من جديد بحريّة تامّة.

وقد عُمّم هذا النظام على كل محاكم الزواج في الكنيسة الغربيّة، لا بل على كل الكنائس الشرقيّة المتّحدة بروما. لا نريد أن ندخل هنا في جدل مع هذا الموقف، ولكن من الواضح أنّ هذا النظام إنّما وُضع للحالات المستعصية في العائلات المسيحيّة، من أجل تخفيف وطأة الكابوس الضاغط عليها، حتّى ولو كان الزواج في البداية صالحًا.

لقد استخدمت كنيسة روما صلاحيّتها فتجاوزت سرّ الكهنوت وأزليّته، لكي تُعتق بعضاً من أساقفتها وكهنتها من خدمتهم الكهنوتيّة. إنّ الالتزام بالكهنوت ليس أقلّ قدسيّة ولا أقلّ أزليّة من الالتزام بالزواج. كما وأباحت كذلك للكهنة والأساقفة الذين توقّفوا عن ممارسة خدمتهم أن يتزوّجوا، مع أنّها تصرّ على طابع كهنوتهم الأزليّ. هذه الصلاحية قد استُخدمت في الزواج وما تزال، من أجل مساعدة الذين يتخبّطون في واقعٍ أليم لا رجاء منه.

هناك ظروف حياتية لا يمكننا أن نتجاهلها في عرفنا الكنسيّ، تُرغم البعض على التخلّي عن العيش ضمن مفهوم الزواج حسب النظرة المسيحيّة. فإذا تمّ في هذه الحالة عقدُ الزواج مرّةً ثانية لأسباب قاهرة، وتفاديًا لحدوث شرّ أكبر، فذلك لا يتنافى مع مقولة الإنجيل التي ترفع من شان الشخص البشريّ وتجلّه، حتّى في ضعفه: «السبت جُعل للإنسان» (مر ٢ : ٢٧). فالتشدّد المطلق في قضايا الزواج من شأنه أن يقود إلى روح تزمّتية قاسية في المحاكم الكنسيّة، تكون عواقبها، دون شكّ، سلبيّةً على المسيحيّين.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

# خاتمة

الصلوات المسيحية هي أنشودة لمجد الله وعظمته. فكل مرّة نذكر اسمه القدّوس، نجذل فرحًا ونتهلّل طربًا.

الله حبٌ، الله حياة، الله جمال، الله فنّ... لا بل يفوق كلَّ ما نتصوره بكثير. وفوق هذا كلّه، الله شخصٌ، أي أبٌ وأم، ابنٌ وابنة. إنّه الهواء الذي نتنشّقه.

إلهنا ليس ذلك الإله العجوز المتوحّد القابع في علياءِ سمائه لا يأبه لشيء. إنّه فيضٌ من الحبّ والحياة. إنّه شركة وعلاقة. إنّه صورة العائلة العائلة.

ومهما سمَت اللغة البشريّة وتغنّت بعظمة الله وغناه، تبقى بعيدةً كلَّ البعد عن معرفة كنهه وصورته الحقيقيّة. فاللاهوت تلمّسٌ دائمٌ لصورة الله، علّه يبلغ إلى إدراك شيء من ألوهيّته وحقيقته.

وجلُّ ما فاضت به اللغة البشريّة، على الرغم من محدوديّتها، هي تلك الصورة التي نقول فيها: «الله آبٌ وابنٌ وروحٌ قدسٌ في طبيعة إلهيّة واحدة». وقد أطلق اللاهوت البيزنطيّ على هذه الحركة المفعمة بالحبّ والحياة اسم «Perichoreisis»، أي تداخل الأشخاص الإلهيّة الثلاثة في حركة دائريّة.

إنّ سرّ الله ليس لغزًا يعسر حلُّه، بل حقيقةٌ عميقةٌ تفوق العقل البشريّ وتتخطّى قدرته ومفاهيمه.

وما علاقتنا بالله – الثالوث سوى ترقّب لكل كشف إلهيّ قد يطال حياتنا. إنّ سرّ الله هو، في آنٍ واحد، تحدٍّ كبير لعقل الإنسان، وجاذبيّة غريبة تخلب تفكيره وحياته.

وغالبًا ما يقود هذا الصراع الكامن في وجود الإنسان إلى حبّ التأمّل والإعجاب والعبادة. وحينما نفتح أعيننا ونكتشف حبَّ الله الفيّاض، ندرك تمام الإدراك معنى

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com



التداخل بين الأشخاص – تلك الحركة الثالوثية التي تعبّر عن الحب الكامن في كل شخص، والمشعّ جمالاً وبهاءً.

عندما يقدّم اللاهوتُ الثالوثَ الأقدس مثالاً ونموذجًا للزواج المسيحيّ، يستند بذلك إلى ما يسود جوَّ الثالوث من تناغم وسلام وكرامةٍ وأمانةٍ وشفافية. لذا، ينبغي أن يُعاش الزواج المسيحيّ كمثال لأولئك الذين لا يشاطروننا إيماننا، أي أن يسعى المسيحيّون إلى العيش على مستوى الحياة السائدة في الثالوث الأقدس.

ولا بدّ من الإشارة، في ختام مطافنا، إلى أنّ اللاهوت البيزنطيّ يرفض الفكرة السائدة في بعض الأوساط المسيحيّة القائمة على جعل يسوع ومريم ويوسف نموذج العيلة المسيحيّة، فهي ضربٌ من الضلال والتجديف. فيوسف مع كونه يتحلّى بقداسة فائقة وشعبيّة واسعة، لا علاقة له البتّة في تكوين شخصيّة السيّد المسيح، بل يستمدّ أهميّته لكونه راعيًا لمريم يحميها من تعسّف الشريعة الموسوية الرافض لكل امرأة في وضعها (أنظر متّى ١:١٨ – ٢٠). في نظر معاصريه كان أبًا ليسوع. وفي الواقع لم يكن سوى محامٍ عن مريم ويسوع تجاه عادات المجتمع وتقاليده. وإن نحن سلّمنا بمفهوم العيلة الصحيح في حياة مريم ويوسف عرّضنا ديانتنا المسيحيّة للخطر ووضعنا كل مفهوم التجسّد في وضعٍ حرجٍ للغاية. من هذا المفهوم، تنهى المدارسُ الإيقونوغرافيّة البيزنطيّة عن رسم يسوع ومريم ويوسف معًا، في إيقونة واحدة، لأنّ التقليد يرفض تمامًا فكرة العيلة الطبيعيّة من يوسف ومريم، كما تُفهم في كل المجتمعات.

إنّ النموذج الحقيقـيّ للزواج المسيحيّ، خصوصاً في اللاهوت البيزنطيّ، هو عيلة يواكيم وحنّة ومريم، فهي حقًّا تفي بشروط الزواج في كلّ أبعاده. فقد اختبروا في حياتهم البؤسَ والغنى، الخيبةَ والنجاح، محتملين كل شيءٍ بأمانة وإخلاص، ليكونوا مثالاً يُحتذى في الأوساط المسيحيّة.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

# فهرس


| | |
|---|---|
| مقدّمة | ٧ |
| قصّة يواكيم وحنّة | ٩ |
| التطبيقات اللاهوتيّة في حياة الإنسان | ١٥ |
| أبعاد الحبّ المسيحيّ | ٢٣ |
| الإتّحاد | ٣٧ |
| رتبة الإكليل | ٤٣ |
| الزواج ثانية | ٥٣ |
| خاتمة | ٥٩ |
| فهرس | ٦١ |


coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

المطبعة البولسيّة
جونيه - لبنان

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

# سلسلة
# الفكر المسيحي بين الأمس واليوم

١ – الأب أغناطيوس ديك: **الله حياتنا.**

٢ – المطران كيرلّس سليم بسترس: **اللاهوت المسيحيّ والإنسان المعاصر.**

**الجزء ١:** الله الخالق – الشرّ والخطيئة الأصليّة – يسوع المسيح.

٣ – **الجزء ٢:** الروح القدس – النعمة – الكنيسة.

٤ – **الجزء ٣:** الأسرار – الحياة الأبديّة.

٥ – القدّيس يوحنّا الدمشقيّ: **المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسيّ**، عرّبه عن النص اليونانيّ الأرشمندريت أدريانوس شكّور، ق. ب.

٦ – الإكسرخوس جوزف نصرالله: **«منصور بنُ سرجون»** المعروف **بالقديس يوحنا الدمشقيّ: عصره، حياته، مؤلّفاته.** عرّبه بتصرّف عن النص الفرنسيّ الأرشمندريت أنطون هبّي.

٧ – ج. – م. – ر. تيّار: **أسقف رومة.** نقله إلى العربيّة الأب جورج خوّام البولسيّ.

٨ – بول إفدوكيموف: **الروح القدس في التراث الأرثوذكسيّ.** عرّبه عن النصّ الفرنسيّ المطران الياس نجمه، وقدّم له المطران جورج خضر.

٩ – **سفر المحبّة.** نقله إلى العربيّة الأب جورج خوّام البولسيّ.

**الجزء ١:** الفاتيكان – الفنار (١٩٥٨ – ١٩٧٠).

١٠ – **الجزء ٢:** الفاتيكان – الفنار (١٩٧٠ – ١٩٨٠).

١١ – **خطيب الكنيسة الأعظم، القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم:** حياته وبعضٌ من مواعظه، ترجمها آباء مخلّصيون. عُني بكتابته وجمعه وتنظيمه الأب الياس كويتر المخلّصي.

١٢ – **القدّيس باسيليوس الكبير:** حياته. أبحاثٌ عنه. مواعظه. عني بكتابته وجمعه وتنظيمه الأب الياس كويتر المخلصيّ.

١٣ – المطران كيرلّس سليم بسترس: **اللاهوت المسيحيّ والإنسان المعاصر. الجزء ٤**: مريم العذراء أمّ ربّنا يسوع المسيح.

١٤ – المطرانان يوسف ريّا وكيرلّس بسترس: **التجسّد فيض المحبّة.**

١٥ – جوزيف راتسنجر: **مدخل الى الإيمان المسيحيّ.** عرّبه الدكتور نبيل الخوري.

١٦ – المطران كيرلّس سليم بسترس: **مدخلٌ الى اللاّهوت الأدبيّ. الجزء ١**: مبادىء أساسيّة في الأخلاق المسيحيّة.

coptic-books.blogspot.com